الرأى والأثر

فى تفسير

سورة القمر

دكتور / حسين عبد السلام

١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين • وعلى آله وأصحابه الهداة المهتدين • وبعد

فان القرآن الكريم هو المعجزة الكبرى التى أيد بها الله رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم ، وتحدى بها المكابرين والمعاندين فعجزوا عن أن يأتوا بمثل القرآن أو بمثل أقصر سورة منه ، ولا يزال التحدى قائما ولن يزال ، وصدق الله العظيم إذ يقول : " قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا " •

والحق أن حال المسلمين مع القرآن فى هذا الزمن الردىء حال لا يسر ، فالصلة بين القرآن وأكثر المسلمين تكاد تكون مقصورة على الانفعال العاطفى معه •

أما ما يجب على المسلم من قراءة فى القرآن ، و حفظ له ، ومعرفة لأهدافه ومعانيه ، وفقه لمقاصده ، ومراميه ، فقليل منهم من يفعل ذلك أو شيئا منه •

ولقد كان سلف هذه الأمة ، أو أكثرهم عارفا للقرآن حقه ، قائما عليه وله بالحفظ والتعلم والتعليم ، فنفعهم الله ببركاته ، وفتح عليهم من كنوز رحماته ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء •

وجهود المفسرين من السلف صفحة بيضاء فى تاريخ هذه

الأمة تدل على أن القرآن العظيم ، قد استولى منهم على الألباب والأفئدة ، فاحتضنوه — مبهورين بإعجازه — يقرأونه ، ويحفظونه ، ويفقهونه ، ويفسرونه ، ويعلمونه للناس .

وهذا الكتاب يشرف بأمداد من هذه الجهود المباركة — محاولة فى الاهتداء بنور القرآن ، والانتفاع بأسراره .

ولست أزعم به أنى مفسر مع المفسرين ، فذلك شرف أكبر من أن يحوزه مثلى ، لكنه ثمرة قراءة وتدبر ونظر فيما كتبه الأئمة فى تفسير سورة (القمر) ومحاولة للاصطفاء من الأقوال والأخبار أصحها ، مع ما فتح الله به من إشراقات لا يعدمها كل من تدبر القرآن .

ولقد جعلت هذا الكتاب قسمين : خصصت القسم الأول منهما لسكب بعض الضوء على أهم قضايا علم التفسير ومعارفه . وخصصت القسم الثانى لتفسير سورة (القمر) .

وقد رجعت فى كلا القسمين إلى الكتب الأصيلة فى هذا الباب العظيم من أبواب العلم ، وبذلت فى ذلك من الجهد ما وسعنى ، والله من وراء القصد ، وهو نعم المستعان !!

دكتور

حسن عبد السلام

القسم الأول

أضواء كاشفة

علم التفسير وفضله

التفسير فى اللغة : مصدر فسر — بتشديد السين — من الفسر بمعنى البيان ، يقال : فسرت الكتاب — بتخفيف السين — أفسره فسرا ، وفسرته بتشديد السين — أفسره تفسيرا .

وقيل : هو مقلوب من السفر — بتقديم الفاء على السين — والمعنى واحد والسفر معناه الكشف والإبانة والوضوح — يقال : أسفر الصبح — إذا ظهر ضوءه وانكشف واتضح .

وقيل : مأخوذ من التفسرة وهى : اسم لما يعرف به الطبيب المرض (١) .

وفى الاصطلاح : علم نزول الآيات وشؤونها ، وأقاصيصها والأسباب النازلة فيها ، ثم ترتيب مكيها ومدنيها ، ومحكمها ومتشابهها وناسخها ومنسوخها وخاصها وعامها ومطلقها ومقيدها ، ومجملها ومفسرها وحلالها وحرامها ، ووعدها ووعيدها ، وأمرها ونهيها ، وعبرها وأمثالها .

وقال أبو حيان : التفسير علم يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن ومدلولاتها وأحكامها الافرادية والتركيبية ومعانيها التى تحمل عليها حالة التركيب وتتمات لذلك (٢) .

واختلف فى الفرق بين التفسير والتأويل ، فقيل : التفسير : بيان

---

(١) انظر الاتقان فى علوم القرآن للسيوطى ٢/٢٢١ .
(٢) الاتقان ٢/٢٢٢ .

لفظ لا يحتمل إلا وجهاً واحداً .

والتأويل : توجيه لفظ متوجه إلى معان مختلفة إلى واحد منها بما ظهر من الأدلة .

وقيل : التفسير : يتعلق بالرواية ، والتأويل يتعلق بالدراية.

وقيل : التفسير ما يتعلق بما وقع مبينا فى كتاب الله ومعينا فى صحيح السنة ، والتأويل ما استنبطه العلماء العالمون لمعانى الخطاب ، الماهرون فى آلات العلوم [1] .

وكثير من العلماء المحدثين لا يفرقون بين التفسير والتأويل فكلاهما يعنى النظر فى كتاب الله بقصد معرفة مقاصد الآيات ومعانيها بالوقوف على دلالات الألفاظ والجمل ومعانى الأساليب، والاستعانة على ذلك بأسبابه وآلاته .

وعلم التفسير هو أشرف العلوم قاطبة ، وأعلاها قدراً وأعظمها منزلة ، لأنه منوط به فهم كتاب الله تعالى، والنظر فى مقاصد كلامه — حسب الطاقة البشرية .

وكتاب الله هو أشرف الكتب وأعظمها ، وكلامه هو أفضل الكلم وأقدسه ، فلا جرم كان تفسيره أشرف العلوم وأعلاها قدرا .

وقد ورد أن علم تفسير القرآن هو الحكمة التى يتفضل الله بها على من يشاء من عباده ، والمشار إليها فى قوله تعالى : " يؤتى الحكمة

---

(١) الاتقان ٢/٢٢٢ .

من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا " .

ورد عن ابن عباس فى معنى الآية : يؤتى الحكمة — قال : المعرفة بالقرآن ، ناسخه ومنسوخه ، ومحكمه ومتشابهه ، ومقدمه ومؤخره ، وحلاله وحرامه، وأمثاله .

وعن أبى الدرداء — يؤتى الحكمة — قال : قراءة القرآن والفكرة فيه .

وفضل علم التفسير يأتى من شرف موضوعه الذى هو القرآن ، ومن شرف غرضه ، لأن غرضه هو فهم مراد الله ، ومن شدة الحاجة إليه لأن إدراك خير الآخرة والدنيا متوقف على العلم بكتاب الله .

* * *

مؤهـــلات المفســـر

القرآن العظيم ، كلام الله المعجز ، المنزل على سيدنـــا محمد صلى الله عليه وسلم ، المتحدى به وبأقصر سورة منه ، الـذى سمعته الجن ، فقالوا : إنا سمعنا قرآنا عجبا .

هذا القرآن المعجز ، لا يجوز لكل أحد من الناس أن يتناوله بالتفسير ، إلا إذا كان مؤهلاً لذلك ، متصفا بالعلم اللازم لهـــذا الأمر — ألم تر إلى قول الله عز وجل : " وتلك الأمثال نضربهـــا للناس وما يعقلها إلا العالمون " .

ولخطورة الخوض فى التفسير كان كثير من الصحابة رضى اللـه عنهم — على علمهم الغزير وفقههم الكثير — يتحرجون من تنـــاول كلام الله بالشرح والتفسير .

واعجب لأولئك الذين يتجرأون على كتاب الله — فى زماننا — ويهجمون عليه ، قائلين فى التفسير وكاتبين فيه من غير أن يكون لهم علم راسخ بلغة القرآن وأساليبها ، أو الحديث وطرقه ، أو غير ذلك مما يلزم المفسر العلم به — وهو كثير — .

وشاع — فيما يشبه الموضـة — أن يعمد متخصص فى الطـب إلى تفسير القرآن ، أو متخصص فى الفلك لتأويل آيات منه — علـى قلة بضاعة هذا وذاك من علوم اللغة والدين — ويفعلون ذلك تحت اسم التفسير العلمى للقرآن .

ولخطورة الخوض فى تفسير كلام الله اختلف العلماء : هل يجوز لكل أحد الخوض فيه ؟

فقال قوم : لا يجوز لأحد أن يتعاطى تفسير شئ من القرآن ، وإن كان عالماً أديباً ، متسعاً فى معرفة الأدلة والفقه والنحو والأخبار ، والآثار ، وليس له إلا أن ينتهى إلى ما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم . ومنهم من قال : يجوز تفسيره لمن كان جامعاً للعلوم التى يحتاج المفسر إليها .

أما العلوم التى يحتاج المفسر إليها فهى :

الأول : علم اللغة الذى به يعرف شرح مفردات الألفاظ ومدلولاتها بحسب الوضع فى أصل الاستعمال العربى . ولضرورة العلم بذلك قال مجاهد : " لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم فى كتاب الله إذا لم يكن عارفاً بلغات العرب " وقال الإمام مالك : " لا أوتى برجل غير عالم بلغة العرب يفسر كتاب الله إلا جعلته نكالا " .

الثانى : علم النحو الذى به يعرف مواقع الكلام وترتيب النظم والإعراب ، وقارئ القرآن الذى لا يعرف النحو ربما وقع فى أخطاء فاحشة ، فما بالك بمن يروم تفسيره ؟!

الثالث : علم التصريف ، الذى به تعرف أبنية الكلمات والصيغ ويستعان به على فهم المعنى ولذلك قال ابن فارس : (من فاته

علمه — يعنى التصريف — فاته المعظم لأن (وجد) مثلاً كلمة مبهمة ، فإذا صرفناها اتضحت بمصادرها ، فإنها تستعمل فى : العثور على الدابة ، وفى الحصول على المطلوب ، وفى : الغضب ، وفى الغنى ، وفى الحب ، وإنما تتميز بالمصادر ، فيقال : وجد ضالته وِجْدَانًا — بكسر الواو — ومطلوبه وُجُودًا — بضمها — وفى الغضب مَوْجِدَةً — بكسر الجيم — وفى الغنى وُجْدًا — بضم الواو — وفى الحب وَجْدًا — بفتح الواو — (١)

الرابع : علم الاشتقاق ، وهو معرفة أصول مواد اللغة وفروعها ، ويمكن أن يندرج فى العلم السابق .

الخامس : علم البلاغة الذى يجمع معرفة المعانى والبيان والبديع ، ويعين العالم به على إدراك خواص الأساليب من جهة الوضوح والابهام، وحسن الصياغة وجمال التعبير، وروعة التشبيهات والصور ، ومعانى الكنايات ، وما إلى ذلك من مسائل علم البلاغة . وتحصيل هذه العلوم لا يتم إلا لمن وهبه الله ملكة الذوق التى بها يستطيع ادراك الفروق بين الأساليب ، ومعرفة العالى منها من الردىء ، وتنمى هذه الملكة بممارسة الأساليب وإطالة النظر فى جيد الكلام .

وإمام المفسرين — فى هذا الميدان — هو الزمخشرى صاحب

---

(١) انظر الاسرائيليات والموضوعات فى كتب التفسير د . محمد أبو شهبة ص ٤٩ .

الكشاف ، وينسب إليه : (من حق مفسر كتاب الله الباهر ، وكلامه المعجز أن يتعاهد بقاء النظم على حسنه ، والبلاغة على كمالها ، وما وقع به التحدى سليما من القادح » (١) .

ولا يتم ذلك إلا لعالم بالبلاغة .

السادس : علم القراءات ، لأنه به يعرف كيفية النطق بألفاظ القرآن الكريم ، وبالقراءات يترجح بعض الوجوه المحتملة فى المعنى على بعض .

السابع : علم أصول الدين ، وهو (التوحيد) الذى به يعرف ما يجب لله وما يستحيل عليه وما يجوز فى حقه تعالى — وما يجب للرسل وما يستحيل عليهم ، وما يجوز فى حقهم ، والفرق بين العقائد والشرائع ، والأصول والفروع ، وما إلى ذلك .

الثامن : علم أصول الفقه ، وبه يعرف أوجه الاستدلال على الأحكام الفقهية ، وطرق استنباطها من آيات القرآن .

التاسع : علم أسباب النزول ، وعلم القصص والأخبار ، وهو مما يعين على معرفة المعنى المراد من الآية ، ويعصم العارف به من الوقوع فى الإسرائيليات والخرافات .

العاشر : علم الناسخ والمنسوخ ، وبه يعرف المفسر ما إذا كانت الآية نسخت بآية أخرى فى اللفظ والحكم أو الحكم فقط — وهو علم واسع وخطير .

---

(١) المصدر السابق ص ٥٢ .

الحادى عشر : علم الفقه ، الذى به تعرف مذاهب الفقهاء وآراؤهم ، وطرق احتجاجهم لآرائهم بآى القرآن .

الثانى عشر : علم الحديث والسنن والآثار ، وهو ضرورى للتمييز بين الحديث الصحيح والضعيف والموضوع .

الثالث عشر : علم الاجتماع ، ليعين المفسر على فهم طبائع الأمم وإدراك سنن الله فى خلقه التى يتعرض لها القرآن .

الرابع عشر : علم تاريخ الأديان والفلسفات والملل والنحل ، ليستطيع من يتعرض لتفسير كتاب الله أن يرد الشبه الباطلة ، وأن يدافع عن كتاب الله ضد افتراءات المفترين وهذيان المبطلين .

الخامس عشر : علم النفس ، وهو يساعد المفسر على فهم إشارات القرآن الكريم إلى طبيعة النفس البشرية وما ركب فيها من غرائز وطبائع ، ويفتح له نوافذ على نفوس المخاطبين بكلام الله عز وجل .

السادس عشر : علم الموهبة .

وهو علم غير مكتسب ، بل يفيض الله منه على عباده المخلصين ، فهو ثمرة من ثمرات تقوى الله عز وجل ، قال السيوطى : (وهو علم يورثه الله تعالى لمن عمل بما علم) (١)

ولا بد لمن أراد أن يفتح الله عليه بفهم كتابه ومعرفة تفسيره أن يطهر قلبه ونفسه وجوارحه ليكون أهلا لإشراقات القرآن .

---

(١) الاتقان ٢/ ٢٣٢ .

قال الزركشى فى البرهان : (اعلم أنه لا يحصل للناظر فهم معانى الوحى ، ولا يظهر له أسراره وفى قلبه بدعة أو كبر ، أو هوى ، أو حب الدنيا ، أو وهو مصر على ذنب ، أو غير متحقق بالايمان ، أو ضعيف التحقيق ، أو يعتمد على قول مفسر ليس عنده علم ، أو راجع إلى معقوله ، وهذه كلها حجب وموانع بعضها آكد من بعض) (١) .

قال السيوطى : (وفى هذا المعنى قوله تعالى : " سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق " قال سفيان بن عيينة : يقول : أنزع عنهم فهم القرآن) (٢) .

وعلى الرغم من أن العبء ثقيل — كما ترى — وأن المهمة شاقة ، والمجهود الذى يجب أن يبذله المفسر عظيم فى تحصيل ما يعينه على فهم كتاب الله وتفسيره — على الرغم من ذلك كله — فان الله سبحانه وتعالى — قد اصطفى من عباده قوماً فتح عليهم من بركات القرآن ، ويسر لهم العمل على حفظ كتابه — قراءة وحفظا وتعلما وفهما ، وتفسيرا وشرحا — فاستسهل أولئك المصطفون لهذه المهمة الصعاب فى سبيل الهدف الأسمى الذى وهبوا أعمارهم له ، طيبة نفوسهم بما يبذلون فى سبيل الله — خدمة لكتابه العزيز — وطلبا لرضوانه عز وجل — .

---

(١) الاتقان ٢/٢٣٢ .
(٢) المصدر نفسه .

ونشأت للتفسير مدارس ، وعرف كثير من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم بجهودهم فى التفسير، وجاء بعدهم جمهرة من التابعين باحسان ، حفظوا كل ما يتعلق بكتاب الله ، وخلفتهم فى ذلك أجيال من العلماء حفظوا التفسير وكتبوه ، فأدوا بذلك واجبهم نحو كتاب الله ، فجزاهم الله خير الجزاء عن دينهم وأمتهم .

* * *

مدارس التفسير وأعلامها

أ ـ المفسرون من صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم .

اشتهر بالتفسير من الصحابة رضى الله عنهم : أبو بكر ، وعمر ، وعلى ، وعثمان ، وعبد الله بن مسعود ، وعبد الله بن عباس ، وزيد بن ثابت ، وأبو موسى الأشعرى ، وعبد الله بن الزبير ، وعلى بن أبى طالب هو أكثر الخلفاء الأربعة حظا فى رواية التفسير عنه .

ب ـ المفسرون من التابعين .

اشتهر بالتفسير من التابعين كثيرون ، من أشهرهم : مجاهد بن جبر ، وسعد بن جبير ، وعكرمة مولى ابن عباس ، وعطاء ابن أبى رباح ، والحسن البصرى ، ومسروق بن الأجدع ، وسعيد بن المسيب ، وأبو العالية ، والربيع بن أنس ، والضحاك بن مزاحم ، وغير هؤلاء كثيرون .

ولما اتسعت الفتوحات فى عهود الخلفاء الأربعة ومن بعدهم ، وانتشر الصحابة رضى الله عنهم فى مشارق الأرض ومغاربها يعلمون الناس دين الله ، وأصبح لكل منهم تلاميذ ينهجون نهجه فى التفسير ويروون عنه ، أصبحت هناك مدارس للتفسير ، لكل مدرسة أعلامها ، وهذه المدارس هى :

١ — مدرسة مكة .

وأستاذها من الصحابة هو سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنه — خبر هذه الأمة ، وترجمان القرآن . وأعلامها من التابعين :

مجاهد بن جبر المكي ، وسعيد بن جبير ، وعطاء بن أبي رباح ، وعكرمة مولى ابن عباس .

٢ — مدرسة المدينة .

والمدينة هي دار الإسلام الأولى ، وعاصمة دولته ، وأستاذ مدرسة المدينة في التفسير هو سيدنا أبي بن كعب رضي الله عنه ، ومن علمائها التابعين :

زيد بن أسلم ، وأبو العالية ، ومحمد بن كعب .

٣ — مدرسة العراق .

وأستاذ هذه المدرسة هو سيدنا عبد الله بن مسعود — رضي الله عنه — وأعلامها من التابعين : مسروق بن الأجدع ، وقتادة بن دعامة ، والحسن البصري ، ومرة الهمداني ، والضحاك بن مزاحم .

٤ — مدرسة الشام .

ومن أعلامها : عبد الله بن غنم الأشعري ، وعمر بن عبد العزيز ورجاء بن حيوة ، وكعب الأحبار .

٥ — مدرسة مصر .

وقد اشتهر من أعلامها : يزيد بن أبي حبيب الأزدي ، وأبو الخير مرثد بن عبد الله .

٦ — مدرسة اليمن .

وأشهر مفسريها : طاووس بن كيسان اليماني ، ووهب بن منبه الصنعاني ، وقد روى هؤلاء التابعون جميعا ما سمعوه عن الصحابة الأبرار في تفسير القرآن الكريم ، وقد كان هؤلاء التابعون من ذوي الصلاح ، والتقى، والأمانة ، والعلم ، وشرفهم الله بحمل كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وتبليغهما من تلاهم .

وكانوا مؤهلين للاجتهاد في فهم كتاب الله عز وجل ، وجاءت من بعد هؤلاء التابعين طبقة من العلماء يسر الله عليهم بذل الجهد في خدمة كتاب الله وسنة رسوله ، فجمعوا المأثور عن الرسول صلى الله عليه وسلم في التفسير والمأثور عن الصحابة وجمعوا إلى ذلك ما أثر عن التابعين .

ومن علماء هذه الطبقة : سفيان الثوري ، وسفيان بن عيينة ، ووكيع بن الجراح ، ويزيد بن هرون ، وأبو بكر بن أبي شيبة ، وغيرهم كثير .

وبعد هذا الجيل حمل أمانة هذا العلم جيل الأئمة في القرن الثالث الهجري : الإمام أحمد بن حنبل (م ٢٤١) والإمام البخاري (م ٢٥٦) وبقي بن مخلد القرطبي (م ٣١٠) والإمام محمد بن جرير الطبري (٣١٠هـ) . وابن أبي حاتم ، والحاكم ، وغيرهم .

وما زالت الأجيال من العلماء المخلصين تتواصل ، يحمل

هذا العلم من كل خلف عدوله — كما قال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم — وفى كل عصر ، وفى كل قطر ، هيأ الله — عز وجل — لكتابه العزيز ، من يقوم عليه حفظاً وفهماً وعملاً وتفسيراً ، كما هيأ لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم من يحفظها ويدونها ويحميها ، وبذلك حمى الله دينه بجناحيه القرآن والسنة من عبث المبطلين وتحريف الغالين وتآمر الكافرين . وصدق الله العظيم إذ يقول : " إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون " .

* * *

أنــواع التفســير

أخذ التفسير للقرآن الكريم منهجين ، أو سار في اتجاهين رئيسين هما : التفسير بالمأثور ، والتفسير بالرأى والاجتهاد . ونوضح الأمر على هذا النحو .

النوع الأول : **التفسير بالمأثور**

وكلمة (المأثور) تعنى ما نقل من أقوال وأخبار في معنى آية من كتاب الله .

فالمأثور اسم مفعول من أثرت الحديث يعنى نقلته ، وحديث مأثور بمعنى منقول . وذلك يشمل المنقول عن الله سبحانه وتعالى — في القرآن الكريم — والمنقول عن الرسول صلى الله عليه وسلم والمنقول عن الصحابة رضى الله عنهم .

ويندرج تحت (التفسير بالمأثور) ما يأتى :

أ — تفسير القرآن بالقرآن .

ومن أمثلة ذلك : قول الله سبحانه في سورة الفاتحة : "اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين " .

فقد فسر المنعم عليهم بقوله تعالى : " ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء

والصالحين وحسن أولئك رفيقا " • وهكذا يمكن أن يستدل على معنى آية قرآنية من آية أخرى •

وللأستاذ عبد الكريم الخطيب تفسير سماه (التفسير القرآنى للقرآن الكريم) سلك فيه هذا المسلك •

ب — تفسير القرآن بالسنة •

فان لم يوجد تفسير لآية من القرآن فى القرآن بحث عن تفسيرها فيما ورد عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأحاديث الصحيحة ، فإن السنة شارحة للقرآن ومبينة • قال الله تعالى : " وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون " •

ومن أمثلة تفسير القرآن بالسنة ما رواه الإمام أحمد والشيخان عن ابن مسعود قال : " لما نزلت " الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون " شق ذلك على الصحابة فقالوا : يا رسول الله وأينا لا يظلم نفسه ؟ قال: "إنه ليس الذى تعنون ، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح : "إن الشرك لظلم عظيم " إنما هو الشرك [1] •

فقد فسر الرسول صلى الله عليه وسلم الظلم فى الآية بالشرك •

---

(١) انظر الاتقان ٢/٢٤٠ •

جـ — تفسير الصحابة ٠

ومن ذلك ما روى عن ابن عباس رضى الله عنه فى قوله تعالى :
" أو لم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شئ حى أفلا يؤمنون " ٠

قال : كانت السماوات رتقا لا تمطر ، وكانت الأرض رتقا لا تنبت ، ففتق الله هذه بالمطر وهذه بالنبات (1) ٠

د — تفاسير التابعين ٠

وفى عد أقوال التابعين من التفسير بالمأثور خلاف ، فيرى بعض العلماء أنها من المأثور ، ويرى بعض آخر أنها من الرأى والاجتهاد ٠

ولا بد أن تكون أقوال التابعين فيها ما هو منقول عن الصحابة ، وفيها ما هو من اجتهادهم وثمرة علمهم والله أعلم ٠

النوع الثانى : **التفسير بالرأى والاجتهاد** ٠

ولا يجوز الاجتهاد والرأى فى تفسير القرآن إلا لمن استجمع شروط ذلك ، وحصل قدراً كافيا من العلوم التى سبق ذكرها فى مؤهلات المفسر ، فليست المسألة متروكة لكل من يريد من غير أن يتأهل لذلك ٠

والتفسير بالاجتهاد والرأى يكون ثمرة للتدبر المتعمق فى

آيات الله ومعايشتها والاستعانة على فهمها بما ورد فيها من النصوص-إن كان- .

ويشترط لقبول التفسير بالرأى أن يكون صادراً عمن هو أهل لذلك ، وألا يعارض نقلا صحيحاً ولا عقلا سليماً ، ولا علماً يقينيا ثابتاً مستقراً ، وأن يبذل فيه طالبه غاية طاقته وجهده . وقد جاءت كتب التفسير متأثرة باتجاهات أصحابها حسب ما يتقنه المؤلف من أنواع العلوم ، فتفسير عالم النحو يغلب على تفسيره الاهتمام بالإعراب والمسائل النحوية . كالبحر المحيط لأبى حيان ، والفقيه يكاد يسرد فى تفسيره مسائل الفقه وفروعها واحتمالاتها وأدلتها ، وذلك كما فعل الإمام القرطبى فى تفسيره ، وصاحب العلوم العقلية يملأ تفسيره بأقوال الحكماء والفلاسفة وشبههم والرد عليها ، وذلك كما فعل الامام الرازى فى تفسيره ، وهكذا تتأثر كتب التفسير بثقافة أصحابها .

* * *

من أهم كتب التفسير وأشهرها

١ — تفسير الطبري ويسمى (جامع البيان في تفسير القرآن)
ومؤلفه هو الإمام الحافظ ، المفسر ، الفقيه ، المؤرخ ، أبو جعفر محمد بن جرير ، بن يزيد ، بن كثير ، بن غالب الطبري — نسبة إلى طبرستان — من بلاد العجم — وهو رأس المفسرين الذين وصلت إلينا كتبهم [1] ولد سنة ٢٢٤ هـ وتوفى سنة ٣١٠ هـ.

وتفسيره من أجل التفاسير بالمأثور وأعظمها قدراً ، جمع فيه ما روى في التفسير عن الرسول. وأخذ عليه أنه لم يسلم من الروايات الضعيفة والمنكرة .

٢ — تفسير ابن كثير . ويسمى (تفسير القرآن العظيم)
ومؤلفه هو : الإمام الحافظ عماد الدين أبو الفداء اسماعيل ابن عمر بن كثير القرشي الدمشقي الفقيه الشافعي ولد سنة سبعمائة تقريبا وتوفى سنة أربع وسبعين وسبعمائة .

وقد جمع ابن كثير في تفسيره بين الرواية والدراية ، وعنى بذكر الأسانيد ، وبيان الروايات الصحيحة من الضعيفة والموضوعة ونقد الرجال ، والجرح والتعديل ، كما فسر فيه القرآن بالقرآن ، وبالسنة ، ونبه على الإسرائيليات والموضوعات الدخيلة على الإسلام ، المكذوبة على أهله .

٣ — تفسير الزمخشري ويسمى (الكشاف عن حقائق التنزيل

وعيون الأقاويل في وجوه التأويل) .

ومؤلفه هو الإمام محمود بن عمر ، بن محمد ، بن عمر ، النحوى ، اللغوى ، الأديب ، المعتزلى ، الزمخشرى — نسبة إلى قرية زمخشر بنواحى خوارزم — الملقب بجار الله ، لأنه ارتحل إلى مكة وأقام بجوار البيت الحرام ، وهناك كتب تفسيره هذا .

ولد سنة سبع وستين وأربعمائة ، وتوفى سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة .

ويعد (الكشاف) عمدة التفاسير فى كشف وجوه الإعجاز القرآنى من الوجهة البلاغية ، وكل من أتى بعده عالة عليه فى هذا الباب ، ومن محاسنه خلوه من الحشو ، وسلامته من الوقوع فى الإسرائيليات غالبا ، واعتماده فى بيان المعانى على لغة العرب وأساليبهم والاستشهاد لذلك بأقوالهم .

ويؤخذ على الزمخشرى فى كشافه أنه ينتصر لمذهبه الاعتزالى بحمل آيات القرآن على ما يوافق آراءهم ، ويدس ذلك بطريقة غير واضحة .

ومن أمثلة ذلك قوله عند تفسير قوله تعالى : " فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز " قال : أى فوز أعظم من دخول الجنة — أشار به إلى عدم رؤية الله عز وجل — بناء على مذهبهم .
وقد قيض الله للكشاف من نبه على آراء صاحبه المتأثرة بمذهبه الاعتزالى ، وهو الإمام أحمد بن محمد ، المعروف بابن المنير الاسكندرى ، وقد ألف كتابا فى ذلك سماه (الانتصاف) .

٤ — تفسير الرازى وهو (مفاتيح الغيب) ومؤلفه هو الإمام المتكلم ، فخر الدين محمد ابن العلامة ضياء الدين عمر الرازى المشتهر بخطيب الرى ، وهو عربى قرشى من سلالة سيدنا أبى بكر رضى الله عنه . ولد سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ،وتوفى سنة ست وستمائة هـ . وكان من أكبر علماء الكلام على مذهب أهل السنة ، عالما بالفلسفة ومذاهب الفلاسفة ، ولذلك غلبت هذه النزعة على تفسيره ، وملأه بأقوال الفلاسفة والحكماء والمتكلمين وناقش مذاهبهم على طريقتهم .

٥ — تفسير البيضاوى ويسمى (أنوار التنزيل ، وأسرار التأويل) ومؤلفه هو الشيخ الإمام قاضى القضاة ناصر الدين أبو الخير عبد الله بن عمر بن محمد بن على البيضاوى الشافعى — أصله من شيراز . توفى سنة خمس وثمانين وستمائة .

والبيضاوى متأثر الى حد كبير بطريقة الزمخشرى — فى الكشاف — فى بيان الألفاظ والتراكيب ومواطن الإعجاز البلاغى. لكنه قرر الأدلة فى تفسيره على مذهب أهل السنة .

ويمتاز تفسير البيضاوى بالتركيز والإيجاز ،وحسن العبارة ، ودقتها، وخلوه من الحشو والتطويل ، وقلة الاسرائيليات فيه .

٦ — تفسير القرطبى المسمى (الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآى القرآن) ومؤلفه هو الإمام أبو عبد الله ،

محمد بن أحمد ، بن أبى بكر ، بن فرج الأنصارى ، الخزرجى ، الأندلسى ، القرطبى — توفى سنة إحدى وسبعين وستمائة .

وقد أسقط من تفسيره القصص والتواريخ ، وذكر عوضاً عنهـا أحكام القرآن والقراءات والإعراب والناسخ والمنسوخ . حتى غلب ذلك عليه .

ومن محاسنه : تخريج الأحاديث ونسبتها إلى رواتها غالبا ، وقلة الإسرائيليات والموضوعات فيه .

٧ — تفسير النسفى . المسمى (مدارك التنزيل وحقائق التأويل) ومؤلفه هو الإمام أبو البركات ، عبد الله بن أحمد ، ابن محمود ، النسفى ، الحنفى المتوفى سنة إحدى وسبعمائة هجرية .

ومما يميز تفسير النسفى أنه وسط بين الإسهاب والإيجاز ، وهو متأثر بطريقة الكشاف الا أنه خال من النزعة الاعتزالية ، وحذف منه طريقة — إن قلت — قلت : التى اتبعها الزمخشرى ، وقد نبه إلى القراءات ونسبها إلى أصحابها .

ويؤخذ عليه أنه أورد بعض الإسرائيليات .

٨ — البحر المحيط لأبى حيان .

ومؤلفه هو : الإمام أثير الدين ، أبو عبد الله ، محمد بن يوسف ، بن على ، بن يوسف ، بن حيان ، الأندلسى ، الغرناطى ولد سنة أربع وخمسين وستمائة ، وتوفى سنة أربع وخمسين وسبعمائة .

ويظهر فى تفسيره أثر ثقافته اللغوية والنحوية والأدبية ،
ويشير إلى القراءات وتوجيهها ، وقد تأثر بمن سبقه من المفسرين
خاصة الزمخشرى ٠

وقد قل ذكر الاسرائيليات فى (البحر) وإذا ذكرها نبه على
بطلانها ، وحذر القارئ من الاغترار بها — إلا أنه غفل عن ذلك
أحيانا — ٠

٩ — تفسير أبى السعود ٠ المعروف باسم (إرشاد العقل
السليم إلى مزايا القرآن الكريم) ومؤلفه هو الإمام القاضى المفتى
أبو السعود محمد ، بن محمد ، بن مصطفى ، ولد سنة ثلاث
وتسعين وثمانمائة بالقرب من القسطنطينية ، وتوفى سنة اثنتين
وثمانين وتسعمائة من الهجرة ٠

وتفسير أبى السعود محاولة للجمع بين تفسير الزمخشرى
وتفسير البيضاوى ، مع إضافة ما فتح الله به على صاحبه ، ولذلك
جاء خاليا من الاستطراد والتوسع فى ذكر الأحكام الفقهية والمسائل
النحوية ، وعنى بوجوه البلاغة ، والاعجاز وذكر المناسبات بين
الآيات ٠ ويغلب عليه البعد عن الإسرائيليات والموضوعات ٠

١٠ — تفسير الألوسى : المسمى (روح المعانى فى تفسير
القرآن والسبع المثانى) ومؤلفه هو الإمام الجليل ، خاتمة المحققين

وعمدة المدققين ، مفتى بغداد ، شهاب الدين ، السيد محمود ابن عبد الله الألوسى ، البغدادى ، الحنفى .

ولد سنة سبع عشرة ومائتين بعد الألف من الهجرة ، وتوفى سنة سبعين ومائتين وألف — طيب الله ثراه ، وجعل الجنة مثواه .

وتفسير الألوسى أجمع تفسير وأوفاه ، فهو خلاصة كتب التفاسير قبله ، وتظهر شخصية مؤلفه فيه ، وله إضافات جيدة ، وإشراقات واضحة .

عنى فيه صاحبه بذكر أوجه النحو والبلاغة والمعانى المحتملة ونبه على القراءات ، وجمع بين المأثور والاجتهاد ، ولم يقع فى ذكر الأحاديث الموضوعة ، ولم يغتر بالاسرائيليات ، وإذا ذكرها نبه عليها وحذر منها وكشف زيفها، وقد مكث الإمام الألوسى فى تصنيف كتابه هذا خمس عشرة سنة — رحمه الله .

* * *

خطر التفسير بالرأى والاجتهـاد

يجدر بمن يتعرض لكتاب الله — سبحانه وتعالى — بالتفسـير والتأويل ، مجتهداً رأيه ممتطياً عقله — أن يشفق على نفسـه ، ويخاف الزلل والعثرة .

واعلم أنه ليس كل كلام الله يجوز التعرض له بالتفسير ، فمن كلامه — عز وجل — ما اختص هو بعلمه وقد قال ابن عبـاس رضى الله عنه فى ذلك :

(التفسير على أربعة أوجه : وجه تعرفه العرب بكلامهـا ، ووجه لا يعذر واحد بجهالته ، ووجه يعلمه العلماء ، ووجـه لا يعلمه إلا الله) .

فالعلم بالتفسير ثلاثة أقسام : (١)

الأول : علم لم يطلع الله عليه أحدا من خلقه ، وهو ما استأثـر الله به من أسرار كتابه ، من معرفة كنه ذاته ، وحقائق أسمائه وصفاته ، وتفاصيل غيوبه التى لا يعلمها إلا هو .

الثانى : ما أطلع الله عليه نبيه من أسرار كتبه ، واختصه به ، وهذا لا يجوز الخوض فيه إلا للرسول — صلى الله عليه وسلم — وقيل ومنه أوائل السور .

(١) انظر : الإمام ابن تيمية وموقفه من قضية التأويل — محمـد السيد الجليند ص ٤٣ .

الثالث : علوم علمها الله نبيه مما أودع فى كتابه من المعانى الجلية والخفية وأمره بتعليمها . وهذا قسمان :

أ — ما لا يجوز الخوض فيه إلا بطريق السمع ، كأسباب النزول ، والناسخ والمنسوخ .

ب — ما يمكن أخذه بطريق النظر والاستدلال ، ومن ذلك ما اتفقوا على جواز الاجتهاد فيه ، وهو استنباط الأحكام الأصلية والفرعية من الأمور العملية (الفقه) .

ومنه ما اختلفوا فى جواز النظر فيه ، وهو تأويل المتشابه من الآيات .

ولقد وضع العلماء شروطاً لقبول التفسير بالرأى منها :

١ — ألا يرفع ظاهر المعنى المفهوم من اللفظ حسب القوانين اللغوية ، وما تعارف عليه العرب فى التخاطب .

٢ — ألا يخالف التفسير قاعدة شرعية مجمعاً عليها بين العلماء والأئمة .

٣ — ألا يناقض نصا قرآنيا ، أو حديثاً صحيحاً .

أما أنواع التفسير الباطلة والمردودة فهى :

١) التفسير من غير تحصيل للعلوم التى لابد منها للمفسر .

٢) الخوض فى تفسير (المتشابه) بدون سند عن الرسول أو أثر صحيح .

٣) التفسير المقرر للمذهب الفاسد ، بأن يجعل المذهب أصلا والتفسير تبعاً له ، فيحمله ذلك على التعسف فى تفسير النص

حسب رأيه . وفى ذلك قال الرسول صلى الله عليه وسلم :
" من قال فى القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ " .

٤) التفسير بالقطع بأن مراد الله كذا .

٥) التفسير تبعاً للهوى الفاسد والعقيدة الباطلة ، وذلك كمسلك الباطنية والخوارج والشيعة والفلاسفة وبعض أهل التصوف .

أمثلة للأقوال الباطلة والمردودة التى تأول بها الملحدون نصوص القرآن

حاول الزنادقة الملحدون أن يدمروا الإسلام ، وأن يحرفوا كلام الله ، فعمدوا إلى اصطناع دعواهم الخبيثة بأن للقرآن ظاهراً وباطناً ، وراحوا يدسون تخريفهم وتحريفهم وباطلهم ، مدعيين بأن ذلك هو المعنى الباطن الذى لا يفهمه غيرهم .

ومن ذلك قولهم — قاتلهم الله — فى " تبت يدا أبى لهب وتبّ " هما أبو بكر وعمر .

وفى قوله تعالى : " لئن أشركت ليحبطن عملك " أى بين أبى بكر وعمر وعلى فى الخلافة .

وفى قوله تعالى : "إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة " هى عائشة .

وفى قوله تعالى : " فقاتلوا أئمة الكفر " طلحة والزبير .

وفى قوله تعالى : " مرج البحرين " عليا وفاطمة ، وفى قوله :

" يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان " : الحسن والحسين .

وقولهم فى قوله تعالى : " محمد رسول الله والذين معه " أبو بكر . " أشداء على الكفار " عمر . " رحماء بينهم " عثمان " تراهم ركعا سجدا " على . وفى قوله تعالى : " والتين " أبو بكر . " والزيتون " عمر " وطور سينين " عثمان " وهذا البلد الأمين " على [1] .

وانظر هل بعد هذا السخف سخف ، وهل يصدر مثل ذلك الهذيان إلا عن المجانين ؟! .

ومن تفاسير الفلاسفة الباطلة ما ذكره ابن سينا فى تفسير المعوذتين — مثلا — حيث قال فى تفسير سورة الفلق (المستعيذ هو النفس الناطقة ، والمستعاذ منه الغاسق الوقب هو القوى الحيوانية فهى ظلمة غاسقة منكدرة — وفى قوله " من شر النفاثات فى العقد " فيه إشارة الى القوة النباتية ... والبدن عقد حصلت من عقد بين العناصر الأربعة . والنفاثات فيها هى القوى النباتية ... وقوله تعالى : " ومن شر حاسد إذا حسد " إنما عنى به النزاع الحاصل بين النفس والبدن ، وذلك هو النزاع الذى نشأ بين آدم وإبليس) .

وله كلام يشبه ذلك فى تفسير " قل أعوذ برب الناس ... "

---

(١) انظر — محمد أبو شهبة — الاسرائيليات والموضوعات ص ١٢

ومؤدى كلامه انكار وجود الجن والشياطين ، والنظر اليها على أنها ليست سوى الغرائز والقوى الحيوانية التى تحرك فى النفس الشهوة وتحوقها عن الصعود إلى عالم العقل والتحليق فى الملكوت الأعلى.[1] وكثيرة هى الأباطيل الملفقة ، والأقوال المردودة. وكشف زيفها على العلماء يسير .

* * *

---

(١) راجع ابن سينا بين الدين والفلسفة — محمود غرابة ص ٢٠٣

خطـــر التفسير بالمأثور

على من يتعرض للقرآن بالتفسير اعتمادا على ما أثر من أخبار وروايات وقصص وآثار ، أن يكون فاحص النظر ، ثاقب البصر ، مميزاً بين الصحيح والباطل ، والأصيل والدخيل ، عارفا بأقدار الرجال ومصادر الأقوال ، حتى لا يغتر بالأخبار الموضوعة أو القصـــص المصنوعة ، وكثيرة ما هى .

والمفسر الذى يعتمد كل خبر ، ويروى كل قصة ، ويتتبع كل أثـــر — دون غربلة وتمحيص — كالمحتطب بليل ، يجتمع فى حوزته الغث والثمين ، ويضم فى حزمته النافع والضار ، وليس ذلك سبيـــــل المدققين .

ويطلق على كل ما هو مكذوب ومختلق ومدسوس على الإسلام (اسم الاسرائيليات والموضوعات) (١) .

و (الاسرائيليات) : جمع اسرائيلية ، نسبة إلى بنى إسرائيـــل وهم بنو يعقوب — عليه السلام — ومن تناسلوا منهم .

ويطلق على من آمن مع سيدنا موسى منهم (اليهود) ، ثم من آمن مع سيدنا عيسى (النصارى) .

ويسمى هؤلاء وأولئك (أهل الكتاب) فمن آمن منهم بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ودعوته ، فهو من المسلمين .

---

(١) راجع فى ذلك الاسرائيليات والموضوعات فى كتب التفســير — د / محمد أبو شهبة ص ٢١ .

وأشهر كتب اليهود التوراة ، وهى الكتاب الذى نزله الله على سيدنا موسى ، ثم حرفه وبدل فيه اليهود ، وكتابهم وديانتهم منسوخان بالإسلام — وكذلك النصارى — .

ومن كتب بنى اسرائيل — أيضا — الزبور ، وأسفار الأنبياء ، ويسمى ذلك — مضافا الى التوراة — بالعهد القديم .

وكان لبنى اسرائيل بجانب التوراة المكتوبة (التلمود) وهو مجموعة قواعد ووصايا وشرائع دينية وأدبية ومدنية وشروح وتعاليم وروايات كانت تدرس وتتناقل بينهم شفهيا .

ومن التوراة وشروحها ، والأسفار وما اشتملت عليه ، والتلمود وشروحه ، والأساطير والخرافات كانت معارف اليهود وثقافتهم .

أما (الموضوعات) فهى الأحاديث المكذوبة والأقوال المختلفة التى ينسبها الكذابون إلى الرسول صلى الله عليه وسلم أو واحد من الصحابة أو التابعين .

ويأخذ الوضع طريقين هما : اما أن يؤلف الواضع كلاما من عند نفسه ، ثم ينسبه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم — أو الصحابى أو التابعى ، واما أن يأخذ الواضع كلاما لبعض الصحابة أو التابعين أو الحكماء أو ما يروى فى الاسرائيليات ، فينسبه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم — ليروج ويحظى بالقبول لدى المسلمين . والذين يدسون على الاسلام ما ليس منه ، وينسبون إلى الرسول وأصحابه ما لم يصدر عنهم يقصدون تشويه الدين وتحريفه والإساءة إليه .

وقد يقع على رواياتهم وموضوعاتهم غافل ، فيروى — عنهم — بحسن النية — ويقع فى شراكهم من غير قصد ، وذلك ما يجب على المفسر أن يحتاط منه .

ويبوء بإثم الوضع والدس على الإسلام ما ليس منه ثلاثة طوائف ، ومن تبعهم .

أما الطائفة الأولى ، فهم الزنادقة من اليهود والفرس ، والرومان الذين دخلوا الإسلام خوفاً أو طمعاً ، واستمروا على عقائدهم الباطلة ، وأرادوا الكيد له بالتحريف والكذب والدس .

والطائفة الثانية هم : ضعفاء الدين من أصحاب المذاهب السياسية والفكرية ، فقد وضع بعضهم أحاديث فى فضائل متبوعيهم ومثالب مخالفيهم — كما فعل الشيعة من وضع الأحاديث فى فضل سيدنا على ، والعباسيون فى فضل ابن عباس ، والخوارج ، والقدرية والمرجئة ، والباطنية ، وغيرهم .

أما الطائفة الثالثة ، فهم القصاص الذين كانوا يجلسون فى المساجد ، يروون للناس التاريخ والآثار ، فحملهم استرضاؤهم لعامة الناس على استمالتهم بالقصص العجيبة والأخبار الغريبة والآثار الباطلة المختلفة .

وقد سلك مثل هذا المسلك بعض جهلة الزهاد والمتصوفة

الذين استباحوا وضع الأحاديث واختلاق القصص فى الترغيب والترهيب ، وما إلى ذلك .

ومن المؤسف أن كثيرا من خطباء المساجد والعاملين فى ميدان الدعوة والوعظ والإرشاد يغترون بكثير من هذا الباطل، فيروونه فى خطبهم ويسوقونه فى مواعظهم ، ويشجعهم على ذلك استحسان العوام لمثل هذه المرويات العجيبة — فلا حول ولا قوة إلا بالله ..

ولقد نسب إلى النبى صلى الله عليه وسلم — وإلى الصحابة والتابعين كثير من الإسرائيليات فى موضوعات كثيرة منها : بدء الخلق، والمعاد ، وأخبار الأمم الماضية ، وقصص الأنبياء .

وأكثر هذه القصص كذبه مفضوح ، لمنافاته الدين ، ومجافاته العقل ، ومع ذلك فقد ورد كثير من الإسرائيليات فى بعض كتب التفسير .

* * *

نماذج من (الاسرائيليات) التى وردت
فى بعض كتب التفسير

١ ـ الإسرائيليات فى قصة داود ـ عليه السلام ـ

ذكر بعض المفسرين كابن جرير وابن أبى حاتم ، والبغوى ، والسيوطى أخبارا باطلة فى قصة سيدنا داود ـ عليه السلام ـ عند تفسير قوله تعالى :

" وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ . إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ . قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ . فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ " (سورة ص ٢١ ـ ٢٥)

قالوا مما لا يقبله الدين ولا يجوزه العقل ـ منسوبا إلى ابن عباس ومجاهد وكعب الأحبار وغيرهم ـ (إن داود ـ عليه السلام ـ حدث نفسه : إن ابتلى أن يعتصم . فقيل له : إنك ستبتلى وستعلم اليوم الذى تبتلى فيه ، فخذ حذرك . ثم أخبر باليوم الذى سيبتلى فيه ، فدخل المحراب وأخذ الزبور ، وأغلق

باب المحراب ، وأمر خادمه بالقعود أمام الباب لكيلا يـــأذن لأحد بالدخول عليه .

فبينما هو يقرأ فى الزبور إذ جاء طائر مذهب يدرج بين يديه ، فدنا منه ، فحاول داود أخذه ، فطار منه ، فتبعـــه ، وأشرف عليه لينظر أين ذهب ، فرأى امرأة تغتسل عند بركتها ، فلما رأت ظله نفضت شعرها ، فغطت جسدها به ، وكان زوجهـا غازياً فى سبيل الله ، فكتب داود إلى رأس الغزاة أن اجعله فى حملة التابوت ، وكان حملة التابوت إما أن يفتح عليهم ، وإمـا أن يقتلوا ، فقدمه فى حملة التابوت فقتل ، فلما انقضت عدتهـا خطبها داود وتزوجها ، فتسور عليه الملكان — فى صـــــورة خصمين — واستفتياه فى المسألة (ان هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة فقال اكفلينها ... الخ " ليذكرا داود بخطئه ، فلما حدث ذلك سجد داود ، فمكث أربعين ليلـــة ساجدا حتى نبت الزرع من دموعه على رأسه ، فأكلـــت الأرض جبينه ... الى آخر ما قالوا) .

وهذه الخرافات تصور داود — عليه السلام — مفتونـــا بامرأة ، يدبر لقتل زوجها الغازى فى سبيل الله ليتزوجها بعده !

ولا ريب فى أن ذلك وأقل منه لا يتناسب وعصمة الأنبيـــاء الذين يصطفيهم الله من خير خلقه ليكونوا هداة وأئمة ودعاة

إلى الله . وكيف يكون ذلك من عبد الله ونبيه داود الـذى أثنى الله عليه بقوله : " ... إِنَّهُ أَوَّابٌ " وبقوله : " وإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ " والذى كان — كما أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم — يصوم يوما ويفطر يوما ، ويقوم نصف الليل .

وكيف يمكن أن يستجيب الناس لدعوته أو يقتدوا بسيرته إذا هو سقط تلك السقطة التى هى أشبه بأخلاق السفهاء العابثين لا بأخلاق الأنبياء الأكرمين ؟!

إن شيئا من الذى حكوه لم يكن ولا يمكن أن يكون ، ذلك حكم الدين والعقل معاً .

والتفسير الصحيح للآيات هو :

أن داود — عليه السلام — بينما كان مشتغلا بعبادة ربه فى المحراب ، دخل عليه خصمان تسورا عليه (من السور) ولم يدخلا من الباب ، ففزع منهما فزعا لا يليق بالمؤمنين الواثقين فى حفظ الله المتوكلين عليه ، وظن أنهما جاءا ليقتلاه . وذلك الفزع وهذا الظن لا يليقان بالنبى ، فيعد مثل ذلك منه ذنبا .

فلما تبين له أنهما خصمان جاءاه ليحكم بينهما فى مسألة النعاج التى كانت لهما استغفر ربه مما كان منه من الفزع والظن السيئ بهما ، وخر راكعا وأناب ، فغفر الله له ذلك .

وهكذا يتبين مدى ما يمكن أن تحدثه تلك الخرافات المدسوسة فى تشويه صورة النبوة ، ولذلك ورد أن سيدنا على بن أبى طالب قال : (من حدث بحديث داود على ما يرويه القصاص

جلدته مائة وستين جلدة) .

٢ — الإسرائيليات فى قصة سليمان " عليه السلام "

عند تفسير قول الله تعالى : " وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ "

روى بعض المفسرين بعض الروايات والقصص المدسوسة فقالوا :

(أراد سليمان — عليه السلام — أن يدخل الخلاء ، فأعطى امرأته خاتمه ، فجاءها الشيطان فى صورة سليمان ، وقال لها : هاتى خاتمى ، فأعطته إياه ، فلما لبسه دانت له الإنس والجن والشياطين ، فلما خرج سليمان من الخلاء ، قال لها : هاتى الخاتم ، فقالت : قد أعطيته سليمان . قال : أنا سليمان . قالت : كذبت ، لست سليمان . فجعل لا يقول لأحد : أنا سليمان إلا كذبه ، فلما رأى ذلك عرف أنه من أمر الله — عز وجل — وقام الشيطان يحكم بين الناس ، فلما أراد الله أن يرد على سليمان سلطانه ، ألقى فى قلوب الناس إنكار ذلك الشيطان ، فأرسلوا إلى نساء سليمان ، فقالوا لهن : هل يكون من سليمان شئ ؟ قلن : نعم . إنه يأتينا ونحن حُيَّضٌ ، وما كان يأتينا قبل ذلك . فلما رأى الشيطان أن قد فطن له ، طرح الخاتم فى البحر ، فتلقته سمكة فأخذته ، وكان سليمان — عليه السلام — يعمل على شط البحر بالأجر ، فاتفق أن وقعت فى يده تلك السمكة ، فشق بطنها فإذا

الخاتم فى جوفها ، فأخذه ولبسه ، فدانت له الانس والجن والشياطين ، وعاد اليه سلطانه ، وهرب الشيطان ... الى آخر ما قالوا) .

أما علامات الكذب والاختلاق فى ذلك الكلام فمنها :

— أنه لا يمكن للشيطان أن يتمثل بصورة سليمان وهو رسول الله ونبيه .

— كيف يتسلط الشيطان على نساء سليمان ، وأى كرامة وأى عصمة تبقى بعد ذلك للرسول ؟ .

— ما أمر هذا الخاتم الذى يتوقف عليه أمر الملك ، ولم لم يرد فى حقه قرآن أو حديث صحيح ؟

الدين والعقل يقضيان ببطلان تلك الخرافات .

أما التفسير المقبول للآية ، والمبين لحقيقة الجسد الذى ألقى على كرسى سليمان ، فهو ما جاء فى الصحيحين — عن أبى هريرة رضى الله عنه — عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " قال سليمان بن داود لأطوفن الليلة على سبعين امرأة ، تحمل كل امرأة فارسا يجاهد فى سبيل الله ، فقال له صاحبه : قل : إن شاء الله ، فلم يقل ، ولم تحمل واحدة منهن شيئا ، إلا واحدة جاءت بولد ساقط احدى شقيه ، فقال النبى — صلى الله عليه وسلم — لو قالها لجاهدوا فى سبيل الله أجمعين " اللفظ للبخارى .

٣ — الإسرائيليات فى قصة أيوب عليه السلام

ذكر بعض المفسرين عند تفسير قوله تعالى : " وَاذْكُرْ عَبْدَنَا

أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ . ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ... الخ الآيات " .

أنه ابتلى بالمرض فى جسده سبع سنين وأشهراً ، فألقى على كناسة بنى إسرائيل ، تختلف الدواب فى جسده ... وأن امرأته كانت تسعى إليه ، حتى قالت له : أما ترى يا أيوب ما قد نزل بى من الجهد والفاقة ، حتى بعت قرونى — (ضفائرها) برغيف لأطعمك ، فادع الله أن يشفيك ويريحك . قال : ويحك .كنا فى النعيم سبعين عاما ، فاصبرى حتى نكون فى الضر مثلها . ثم عافاه الله وألبسه حلة من الجنة .

وذلك الوصف الذى تدعيه هذه القصص لابتلاء سيدنا أيوب — عليه السلام — شئ منفر لا يقبل أن يوصف به نبى .

والحق الذى يجب علينا أن نؤمن به هو أن أيوب — عليه السلام — ابتلاه الله فى جسده وأهله وماله ، وأنه صبر حتى صار مضرب الأمثال فى الصبر . فجزاه الله بذلك أحسن الجزاء .

أما أنه أصيب بالجذام ، وألقى على كناسة بنى اسرائيل يرعى الدود فى جسده ، وأن امرأته باعت شعرها لتطعمه ، فكل ذلك لا يليق بمكانة النبى والنبوة ، ولا يصح فى الدين ، ولا يقبل بالعقل.

٤ — الإسرائيليات فى وصف سفينة نوح — عليه السلام —

أحاط القصاصون سفينة نوح — عليه السلام — بهالات من

العجائب والأساطير ، وذلك عندما أرادوا أن يصفوا طولها ، وعرضها ، والخشب الذى صنعت منه ، والأجناس التى حملتها ، وغير ذلك مما يتعلق بهذه السفينة .

ومما قالوه ان طول السفينة كان ثلاثمائة ذراع ، وعرضها خمسون ذراعا ، وارتفاعها فى السماء ثلاثون ذراعا ... وقالوا إن نوحا لما أمر أن يصنع السفينة ، قال : يا رب أين الخشب؟ قال : اغرس الشجر ، فغرس الساج عشرين سنة .

وقالوا : كانت السفينة ثلاث طبقات ، فطبقة فيها الدواب والوحش ، وطبقة فيها الانس ، وطبقة فيها الطير ، فلما كثرت أرواث الدواب أوحى الله الى نوح : أن اغمز ذنب الفيل ، فغمزه فوقع منه خنزير وخنزيرة ، فأقبلا على الروث ، فلما أخذ الفأر يخرب السفينة بقرضه ، أوحى الله الى نوح : أن اضرب بين عينى الأسد ، ففعل ، فخرج من منخره سنور وسنورة ، فأقبلا على الفأر فأكلاه ... الى غير ذلك مما هو شبيه بالأساطير .

والمؤمنون بالله وكتابه مطالبون بأن يؤمنوا بأن الله أمر نوحا عليه السلام بصنع الفلك التى نجاه الله بها هو والمؤمنين معه .

ولا بد أن السفينة كانت عظيمة ، وعظمتها المعنوية — من جهة وظيفتها وارتباطها بأمر الله ونبيه نوح أعظم من أن يتلمس

فى وصفها هذا الإغراب الذى صنعه خيال القصاص والرواة .

وهذه الأوصاف التى زعموها ـ إن صحت وهى لا تصح ـ العلم بها لا ينفع والجهل بها لا يضر ، وهى لذلك لا تستحق أن يضيع فيها الكاتبون والقارئون والمتحدثون والسامعون أوقاتهم ، والأولى فى ذلك التوقف عند النصوص الصحيحة التى وردت فى كتاب الله وسنة رسوله ـ والله أعلم .

* * *

خطوات المنهج القويم
في تفسير القرآن الكريم

يمكن للمفسر أن يلتزم منهجا يعصمه من الزلل ، ويباعد بينه وبين الخطأ ، ويمكنه من ادراك بغيته ، مستنيرا فى ذلك المنهج بما قرره علماء التفسير من قواعد وآداب ، ويمكن أن يكون هذا المنهج هو الخطوات الآتية :

١ ـ التجرد لله والاخلاص له ، وتنزيه النفس عن الميل الى مذهب معين ، وتبرئتها من الأهواء والنزعات ، والتوجه بالكلية - إلى الله - عز وجل - فانما الأعمال بالنيات .

٢ ـ البدء بمعرفة معانى ألفاظ الآية فى أصل الاستعمال اللغوى .

٣ ـ النظر فى احتمالات الاعراب والتوجيه النحوى ، وما يترتب على ذلك فى المعنى ـ دون إسراف فى التفريعات وذكر الخلافات النحوية .

٤ ـ مراعاة المعنى الحقيقى والمجازى ، والإشارة إلى ما يمكن الاهتداء اليه من معالم الاعجاز القرآنى .

٥ ـ ذكر أسباب النزول . اذا تيقن من صحة ما ورد فى ذلك .

٦ ـ مراعاة تأليف الكلام والمعنى الذى سيق له ، محاولة لفهم المراد ، وإصابة الصواب .

٧ ـ العناية بذكر المناسبات بين الآيات والسور ـ ما أمكن ـ

لأن ذلك يكشف عن بعض وجوه الاعجاز فى القرآن العظيم .

٨ — تجنب الوقوع فى أحابيل الاسرائيليات والخرافات والأحاديث الموضوعة والقصص المصنوعة .

٩ — التواضع وعدم التعالم ، وتفويض الأمر لله فى العلم بكل شئ على حقيقته .

١٠— القصد بين التطويل الممل والاختصار المخل ، بأن يلتزم نهجا وسطا .

١١— بيان ما ترمى اليه الآيات من أهداف ، وما تتضمنه من دروس وعظات .

١٢— ذكر ما تتضمنه الآيات من أحكام فقهية إن كانت من آيات الأحكام .

هذه هى أهم خطوات المنهج القويم فى تفسير القرآن الكريم والله أعلم .

* * *

القســـم الثانـــى

تفســـير ســـورة القمـــر

(٥٤) سُورَةُ القَمَرِ مَكِّيَّة
وَآيَاتُهَا خَمْسٌ وَخَمْسُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا ءَايَةً يُعْرِضُوا
وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ
وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ
مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ﴿٥﴾
فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا
أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾
مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾
* كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ
وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا
أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ
عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ
ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ
كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾
فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ

لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ
عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ
نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ
مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا
ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ
بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى
ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ
كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾
إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾
وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾
فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى
وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ
ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن
مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا
عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً
مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم

بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْاْ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ
فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم
بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ
يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ
فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ
عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم
بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾
سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ
وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ
وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ
مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ
إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ
فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾
وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ
وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾

بـــين يـــدى الســـورة

سورة " القمر " مكية نزلت على الرسول (ص) قبل الهجـــرة وعدد آياتها خمس وخمسون آية ، وقد نزلت بعد ســـــورة " الطارق " .

وسميت السورة " القمر " لقول الله سبحانه وتعالى فى أولهـا " اقتربت الساعة وانشق القمر " . وتسمى أيضا سورة "اقتربت ".

وقد ورد فى فضلها أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : " من قرأ سورة القمر فى كل غب بعثه الله يوم القيامة ووجهـــه مثل القمر ليلة البدر " .

وبين سورة " القمر " والسورة التى قبلها والسورة الـــتى بعدها فى الترتيب المصحفى مناسبة كما أن بينها وبين ما قبلهـا وما بعدها فى الترتيب النزولى مناسبة كذلك .

والمناسبة معناها فى اللغة : المشاكلة والمقاربة ، ومرجعها فى الآيات والسور — كما يقول السيوطى — رحمه الله — الى معـنى رابط بينها عام أو خاص عقلى أو حسى أو خيالى أو غير ذلك مـن أنواع العلاقات أو التلازم الذهنى كالسبب والمسبب والعلــــة والمعلول والنظيرين والضدين ونحوه (١) .

---

(١) الاتقان فى علوم القرآن ٢/١٣٩ .

ولعلماء التفسير اجتهادات جيدة فى محاولة معرفة المناسبة بين آيات القرآن وسوره ، وألفوا فى ذلك مصنفات ، لكنهم نبهوا على أن هذا الأمر — أعنى المناسبة — قد يشكل ويخفى أحيانا ، وليس فى خفاء المناسبة ما يعيب النظم القرآنى — تعالى الله عن ذلك وتقدس كلامه —.

وعن المناسبة بين سورة " القمر " والسورة التى قبلها فى ترتيب المصحف ، وهى سورة " النجم " أشار الامام السيوطى الى أنه لا يخفى ما فى توالى هاتين السورتين من حسن التناسق ، للتناسب فى التسمية ، لما بين النجم والقمر من الملابسة ، وأيضا فان هذه بعد تلك — كالأعراف بعد الأنعام ، وكالشعراء بعد الفرقان ، وكالصافات بعد يس — فى أنها تفصيل لأحوال الأمم المشار إلى إهلاكهم فى قوله تعالى : " وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى " وَقَوْمَ نُوحٍ ... " إلى قوله تعالى : " والْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى " (١) .

وبين آخر سورة النجم وأول سورة القمر تناسب واضح ، إذ نقرأ فى آخر سورة النجم " أَزِفَتْ الآزِفَةُ * لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ * أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ * وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ * وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ * فَاسْجُدُوا لِلَّهِ واعْبُدُوا " .

---

(١) راجع تفسير الألوسى ٢٧/٧٣ .

فالآيات — كما ترى — تتحدث عن قرب القيامة وتحقق وقوعها وتتبع ذلك بالتعجب من أمر المكذبين بالقرآن الغافلين عنـــه وتدعوهم إلى التوبة والرجوع والسجود والخشوع لله عز وجل .

وتبدأ سورة القمر بالحديث عن قرب القيامة ، ثم تنـــذر المكذبين بالقرآن ، المتمادين فى الغى والضلال ، وتحذرهم من مصير سيئ ينتظرهم ، وتقص عليهم من أبناء الأمم السابقة ما فيه مزدجر لهم وتنهى عن تكذيب الرسول محمد صلى الله عليه وسلـــم ، ثم تلفتهم إلى الاعتبار بالقرآن والانتفاع بما تضمن من حكم بالغة .

وعن المناسبة بين سورة (القمر) والسورة التى تليها فـــى ترتيب المصحف وهى سورة (الرحمن) يقول الإمام الفخر الرازى :

" اعلم أن مناسبة هذه السورة (الرحمن) لما قبلها مـــن وجهين . أحدهما أن الله تعالى افتتح السورة المتقدمة (القمـــر) بذكر معجزة تدل على العزة والجبروت والهيبة ، وهى انشقـــاق القمر ، فان من يقدر على شق القمر يقدر على هد الجبال وقـــد الرجال .

وافتتح هذه السورة (الرحمن) بذكر معجزة تدل علـــى الرحمة والرحموت وهو القرآن الكريم فانه شفاء القلوب بالصفـــاء عن الذنوب .

وثانيهما أنه تعالى ذكر فى السورة المتقدمة (فكيف كـــان

عذابى ونذر) غير مرة ، وذكر فى هذه السورة (فبأى آلاء ربكما تكذبان) مرة بعد مرة لما بينا أن تلك السورة (القمر) سورة إظهار الهيبة ، وهذه السورة (الرحمن) سورة إظهار الرحمة .

ثم إن أول هذه السورة (الرحمن) مناسب لآخر ما قبلها حيث قال فى آخر تلك السورة (القمر) (عند مليك مقتدر) والاقتدار إشارة إلى الهيبة والعظمة ، وقال ههنا : (الرحمن) أى عزيز شديد منتقم مقتدر بالنسبة إلى الكفار والفجار ، رحمن منعم غافر للأبرار " (١)اهـ

هذا عن المناسبة بين سورة (القمر) والسورة التى قبلها والسورة التى بعدها فى الترتيب المصحفى . أما عن المناسبة بين سورة (القمر) وما قبلها وما بعدها فى الترتيب النزولى فان السورة التى نزلت قبل سورة (القمر) هى سورة (الطارق) — ومعنى الطارق كما قال الله سبحانه (النجم الثاقب) أى النجم المضىء كأنه يثقب الظلام بضوئه فينفذ فيه . وبين الطارق — بهذا المعنى — والقمر مناسبة لا تخفى .

وفى آخر سورة الطارق حديث عن البعث " إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ * يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ " وإنذار لكفار مكة ووعيد "إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا وَأَكِيدُ كَيْدًا " ثم أمر للرسول صلى الله عليه وسلم بأن

---

(١) راجع تفسير الرازى ٢/٨ .

يمهلهم إمهالا يسيرا وألا يستعجل بإهلاكهم فإن الساعة قريب .

وبين هذه النهاية وبداية سورة (القمر) تناسب فآخر (الطارق) (أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا) وأول (القمر) " اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ " .

وأما السورة التى تلى سورة (القمر) فى الترتيب النزولى فهى سورة (ص) ، وبين السورتين كذلك تناسب ، فبينما تنص سورة القمر على تكذيب قوم نوح وعاد وثمود وفرعون لرسل الله الذين أرسلوا اليهم ، وتبين مصائر هوءلاء المكذبين ، تسير سورة (ص) فى هذا الاتجاه أيضا ، فتقص أنباء المكذبين وتحذر كفار مكة عاقبة التكذيب فتقول : " ص . وَالْقُرْآنِ ذِى الذِّكْرِ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ . كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ . وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ . "

وتستمر الآيات فى قص ما قاله الكفار المعاندون لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم تذكرهم بمصير من سبقوهم من الذين كذبوا رسل السماء فتقول : " كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ، وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ ... " إلى آخر الآيات فبين السورتين مناسبة . هذا هو ما فتح الله به علينا فى تلمس المناسبة بين سورة القمر وما بعدها وما قبلها فى الترتيب

النزولى ، أسأل الله أن يجنبنا الزلل وأن يضئ لنا السبل ، وألا يوءاخذنا بما نسينا أو أخطأنا .

والتناسب بين آى القرآن الحكيم وسوره على هذا النحو العجيب باب من أبواب إعجازه . وتأمل كيف أن هذه الآيات الكثيرة والسور الطويلة والقصيرة ، يأخذ بعضها بأعناق بعض حتى تصبح كالكلمة الواحدة ، متسقة المعانى ، منتظمة المبانى فلا ضعف ولا اختلاف ولا تناقض — فسبحان الذى هذا كلامه ، وصدق الله العظيم : " ... وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا " .

* * *

" البسملة "

معنى " بسم الله الرحمن الرحيم " أقرأ مستعينا باسمه ، ومتبركا به ، وطالبا منه العون والتوفيق ، فهو وحده صاحب الفضل في كل نعمة ، وميسر الخير في كل مهمة ، وهو ذو الفضل العظيم والاحسان العميم .

وقد افتتح الله سبحانه وتعالى سور القرآن - ما عدا سورة التوبة - بهذه الكلمات المباركة المشتملة على الثناء على الله بالرحمة . وفي ذلك إشارة وإرشاد للمسلمين أن يبتدئوا كل عمل وكل قول بالبسملة - كما بدأ الله بها سور القرآن العظيم - طلباً لعونه وتوفيقه وهدايته ، وعصمة من النقص والإحباط ووساوس الشيطان ، ومخالفة لغيرهم ممن لا يدينون بالعبودية لله وحده ، ولا يقصدون بأعمالهم وجهه .

ولقد وجه الرسول صلى الله عليه وسلم أمته إلى بدء أقوالهم وأعمالهم بالبسملة ، فقال : " كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله فهو أبتر " أي ناقص لا بركة فيه . قال الإمام ابن جرير الطبري - رحمه الله - :

" إن الله تعالى ذكره وتقدست أسماؤه أدب نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بتعليمه ذكر أسمائه الحسنى أمام جميع أفعاله ، وجعل ذلك لجميع خلقه سنة يستنون بها ، وسبيلا يتبعونه عليها ، فقول القائل : (بسم الله الرحمن الرحيم) إذا افتتح تالياً سورة

ينبئ عن أن مراده : أقرأ بسم الله . وكذلك سائر الأفعال[1] .

وفى كون (البسملة) آية من الفاتحة ومن كل سورة أو غير آيــــة خلاف بين القراء والمفسرين فقراء مكة والكوفة وفقهاؤهمـا ، وابـن المبارك ، والشافعى على أنها آية ، وسئل محمد بن الحسن عنهـا فقال : ما بين الدفتين كلام الله تعالى ، ويقوى هذا الـرأى مـا روى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن الرسول صلى الله عليه وسلـم قال : " فاتحة الكتاب سبع آيات أولاهن بسم الله الرحمن الرحيم" وقول أم سلمة رضى الله عنها : " قرأ رسول الله صلى الله عليـه وسلم الفاتحة وعد بسم الله الرحمن الرحيم الحمد للـــــه رب العالمين آية " ومن أجل هذه الرواية اختلف هل هى آية برأسها أم بما بعدها .

ويقوى هذا الرأى أيضا أن الاجماع منعقد على أن ما بـــين الدفتين هو كلام الله سبحانه وقد بالغ القراء والمفسرون وسلف الأمة الصالح على تجريد المصحف من كل ما هو ليس بقرآن ، حتى لم تكتب كلمة (آمين) ، وما دامت البسملة قد كتبت ــ مع هـــذا التجريد ــ فهى آية .

وقراء المدينة والبصرة والشام وفقهاؤها على أن البسملة ليست آية ، والى ذلك أيضا ذهب الامام مالك والامام الأوزاعى [2] .

---

(١) انظر صفوة التفاسير للصابونى حـ ١ ص ٩ .
(٢) راجع ذلك فى تفسير البيضاوى حـ ١ ص ٢ .

أما اعراب البسملة ودلالات ألفاظها فى اللغة ، فان الباء فى (بسم الله) حرف جر وهى متعلقة بفعل متأخر محذوف ، يقدر فى كل عمل بحسبه ، فيقال فى التقدير عند الشروع فى القراءة : بسم الله أقرأ ، وعند الشروع فى الكتابة بسم الله أكتب ، وهكذا .

ويقدر الفعل المحذوف متأخرا للدلالة على الاختصاص ، ولأن تعظيم اسم الله يناسبه تقديمه .

والباء للاستعانة أو المصاحبة أو الملابسة ، والمعنى على الأول أبدا مستعينا بعطاء اسمه ومدده ، وعلى الثانى أبدأ متبركا بمصاحبة اسمه ، وعلى الثالث : أبدأ متلبسا بذكره والثناء عليه ومراقبته وطلب التوفيق منه .

والاسم : مشتق من السمو ، وهو العلو . أو مشتق من السمة ، وهى العلامة . لأن كل اسم علامة على مسماه ، وأصل (اسم) وسم . حذفت الواو ، وعوض عنها بهمزة الوصل .

(الله) أصل اللفظ إله ، ولفظ إله يستعمل فى الأصل لكل معبود ، ثم غلب على المعبود بالحق ، واشتقاقه من : أله إلهة وألوهة وألوهية بمعنى عبد ، ومنه : تأله واستأله .

وقيل : من أله بمعنى — تحير ، لأن العقول تتحير فى معرفته .

أو مشتق من أله بمعنى — سكن — لأن القلوب تطمئن بذكره والأرواح تسكن إلى معرفته . أو من أله — إذا فزع من أمر نزل عليه ، وأله غيره — أجاره — إذ العائذ يفزع إليه وهو يجيره —

حقيقة فى الإله المعبود بحق ، وهو الله ، وزعماً فى الآلهة الباطلة . أو من أله الفصيل إذا ولع بأمه ، إذ العباد يولعون بالتضرع إليه فى الشدائد .

و (الله) علم على ذات الله سبحانه ، وقال الإمام البيضاوى : الأظهر أنه وصف فى أصله ، صار بغلبة الاستعمال كالعلم (1) .

(الرحمن الرحيم) وصفان للفظ الجلالة ، وهما من أسماء الله الحسنى ، وقيل فى معناهما : الرحمن بجميع الخلق ، والرحيم بالمؤمنين ، وفى ذلك مزيد شرف ورحمة للمؤمنين لأنهم يشاركون الخلق فى رحمة الرحمن ، ويختصون من دون الخلق برحمة الرحيم تكريماً لهم ورفعا لشأنهم .

وقيل : الرحمن . رحمن الآخرة والدنيا ، والرحيم — رحيم الآخرة .

وقال الامام ابن القيم رحمه الله : الرحمن دال على الصفة القائمة به سبحانه . والرحيم دال على تعلقها بالمرحوم .

واستدل على ذلك بقول الله سبحانه : " وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا " وقوله : " إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ " ولم يجئ قط : رحمن بهم .

(1) راجع تفسير البيضاوى ١/٣ .

وقال : إن أسماء الرب تعالى هى أسماء ونعوت ، فانها دالة على صفات كماله ، فلا تنافى فيها بين العلمية والوصفية فالرحمن اسمه تعالى ووصفه ، فمن حيث هو صفة جرى تابعا لاسم الله ، ومن حيث هو اسم ورد فى القرآن غير تابع بل ورد الاسم العلم كقوله تعالى : " الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ "[1]

* * *

(١) انظر مدارج السالكين ١/١٨ .

التفسير من الآية (١) الى الآية (٨) :

" اقْتَرَبَتْ السَّاعَةَ وانشَقَّ القَمَرَ (١) وَإِنْ يَرَوا ءايَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌ (٢) وَكَذَّبُوا واتَّبَعُوا أهْوَاءَ هُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌ (٣) وَلَقَدْ جاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ (٤) حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ (٥) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ (٦) خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ (٧) مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الكَافِرُونَ هَـٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ (٨) " .

(اقتربت الساعة) قربت القيامة ، (وانشق القمر) انفلق فلقتين ، وقد حدث ذلك فى عهد سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم آية من آيات القدرة الالهية ، وتأييدا له عليه السلام قبل الهجرة الى المدينة بخمس سنوات .

روى الترمذى والشيخان عن أنس رضى الله عنه قال : سأل أهل مكة النبى صلى الله عليه وسلم آية ، فانشق القمر بمكة فنزلت " اقتربت الساعة وانشق القمر . وان يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر " (١) .

---

(١) انظر التاج الجامع للأصول فى أحاديث الرسول للشيخ منصور على ناصف ٤/٢٥٦ .

وفى الصحيحين عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : "انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فرقتين ، فرقة على الجبل وفرقة دونه : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اشهدوا "[1] وقد روى مثل ذلك عن جماعة من الصحابة .

وجاء فى رواية البخارى وغيره عن ابن مسعود " كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنى فانشق القمر " . ولا تعارض بين هذه الرواية التى تنص على أن الانشقاق كان بمنى ورواية أنس التى تقول : فانشق القمر بمكة — لأن أنس لم يصرح بأن الرسول عليه الصلاة والسلام — كان ليلتئذ بمكة ، فالمراد أن الانشقاق كان والنبى إذ ذاك مقيم بمكة قبل أن يهاجر إلى المدينة[2] .

وروى عن الحسن أنه قال : هذا الانشقاق بعد النفخة الثانية ، وعبر عنه بالماضى لتحقق الوقوع ، وروى ذلك عن عطاء أيضا .

وذهب البعض الى أن معنى (انشق القمر) وضح الأمر وظهر ، وهذا ليس بشئ ويرده ويرد الرأى الذى قبله قول الله سبحانه : " وان يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر " فذلك دليل على أن انشقاق القمر كان آية حدثت ووقعت فعلا ، ومع ذلك استمر إنكار الكفار وتكذيبهم وإعراضهم جرياً على طريقتهم

---

(١) المرجع السابق نفسه .
(٢) انظر تفسير الألوسى ٢٧/٢٤ .

التى اعتادوها كلما رأوا آية تدل على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم .

ويقوى الرأى الأول القائل بأن الانشقاق حدث فعلا فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم أن سيدنا حذيفة قرأ (اقتربت الساعة وقد انشق القمر) أى اقتربت الساعة وقد حصل من آيات اقترابها أن القمر قد انشق ، كما تقول : أقبل الأمير وقد جاء المبشر بقدومه . وعن حذيفة أنه خطب بالمدائن ثم قال : ألا إن الساعة قد اقتربت وإن القمر قد انشق على عهد نبيكم [1] .

وقد أنكر الفلاسفة والملاحدة إمكان الانشقاق ، وذهبوا إلى استحالة حدوثه . ومعلوم أن انكار مثل هؤلاء مبنى على عدم إيمانهم بالقدرة الالهية المطلقة التى لا يعجزها شئ فى الأرض ولا فى السماء .

ومن ينكر وقوع الانشقاق من المسلمين لا يخرج من الدين بذلك ، لأن الآية ليست نصاً فيه ، فقد فسرها بعض المفسرين على أنها إخبار بما سيقع فى المستقبل ، ولعدم الاتفاق على تواتره " [2] .

وعلى رأى جمهور المفسرين ، واستناداً إلى الروايات الصحيحة التى أخبرت بحدوث الانشقاق فى حياته صلى الله عليه وسلم ذهب بعض المفسرين إلى أن الانشقاق آية لأصل إمكان القيامة الذى

---

(١) الكشاف للزمخشرى ٤/٣٤٣ .
(٢) راجع تفسير الألوسى ٢٧/٧٧ .

يقتضيه قرب الوقوع ، وقيل : هو آية لقرب وقوع القيامة ومعجزة للنبى صلى الله عليه وسلم باعتبار أن الله تعالى مخبر فى كتبه السالفة بأنه إذا قربت الساعة انشق القمر معجزة . ويتفق مع هذا ما رواه الإمام أحمد من قول الرسول صلى الله عليه وسلم : " بعثت أنا والساعة كهذه من هذه إن كادت لتسبقنى " . وأشار إلى إصبعيه — السبابة والوسطى .(١)

قال الخازن : وانشقاق القمر من آيات رسول الله صلى الله عليه وسلم الظاهرة ومعجزاته الباهرة ، يدل عليه ما أخرجه الشيخان عن أنس " أن أهل مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر مرتين " (٢).

وللأستاذ سيد قطب — رحمه الله — تعليق على هذه الرواية التى تدل على أن الانشقاق من معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم — يقول :

(إن هذه الرواية تصطدم مع مفهوم نص قرآنى مدلوله أن الرسول — صلى الله عليه وسلم — لم يرسل بخوارق من نوع الخوارق التى جاءت مع الرسل قبله لسبب معين : " وما منعنا أن نرسل بالآيات الا أن كذب بها الأولون " .

فمفهوم هذه الآية أن حكمة الله اقتضت منع الآيات

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٤/٢٦١ .
(٢) صفوة التفاسير ١٧/٣٩ .

ـ أي الخوارق ـ لما كان من تكذيب الأولين بها . وفي كل مناسبة طلب المشركون آية من الرسول صلى الله عليه وسلم كان الرد يفيد أن هذا الأمر خارج عن حدود وظيفته ، وأنه ليس إلا بشرا رسولاً ، وكان يردهم إلى القرآن يتحداهم به بوصفه معجزة هذا الدين الوحيدة : " قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتْ الإِنسُ والجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا القُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا . وَلَقَدْ صَرفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا القُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورا . وَقَالُوا لَن نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِن الأَرْضِ يَنبُوعًا أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ من نخيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا . أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا . أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلن نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا " .

... فالقول بأن انشقاق القمر كان استجابة لطلب المشركين آية ـ أي خارقة ـ يبدو بعيدا عن مفهوم النصوص القرآنية ، وعن اتجاه هذه الرسالة الأخيرة إلى مخاطبة القلب البشرى بالقرآن وحده ، وما فيه من إعجاز ظاهر ، ثم توجيه هذا القلب ـ عن طريق القرآن إلى آيات الله القائمة في الأنفس والآفاق وفي أحداث التاريخ سواء .

فأما ما وقع فعلا للرسول صلى الله عليه وسلم من خوارق شهدت بها روايات صحيحة فكأن إكراما من الله لعبده ، لا دليلا لإثبات رسالته .

ومن ثم نثبت الحادث — حادث انشقاق القمر — بالنص القرآنى وبالروايات المتواترة التى تحدد مكان الحادث وزمانه وهيئته ، ونتوقف فى تعليله الذى ذكرته بعض الروايات![1] انتهى كلام الأستاذ سيد قطب رحمه الله .

وفى هذا الكلام من الوجاهة ما فيه ، وهو يدل على ذكاء صاحبه وإطالة نظره فى كتاب الله ، وسفره القيم (فى ظلال القرآن) كان ثمرة طيبة لهذا النظر وتلك المعايشة للقرآن الكريم .

لكنه هنا يثبت وقوع الخوارق — ومنها انشقاق القمر — ويتوقف فى قبول الرواية التى تشير إلى أن هذه الحادثة كانت آية ومعجزة للرسول صلى الله عليه وسلم ، ويقصر وظيفة هذه الخوارق على كونها تكريما له صلى الله عليه وسلم لا إثباتا لرسالته .

والذى أراه أن اثبات الرسالة والتكريم للرسول الذى يجرى الله على يده المعجزة أمران متلازمان ففى حادث الإسراء والمعراج

---

(١) انظر فى ظلال القرآن م ٦ ص ٣٤٢٦ .

مثلا — وهو من الأمور الخارقة — تكريم للرسول صلى الله عليه وسلم ومعجزة ولا تنافى بين الأمرين ، بل هما — فيما أرى — متلازمان .

وما دامت رواية الشيخين أثبتت أن أهل مكة سألوا الرسول أن يريهم آية ، فانشق القمر فلا ضرورة للتوقف فى عد هذه الحادثة معجزة وقصرها على كونها تكريما .

وقول الله سبحانه بعد إخباره عن انشقاق القمر : " وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر " إشارة الى أن انشقاق القمر كان آية .

وأما قول الله سبحانه "وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ... " .

فقد نزلت كما يقول المفسرون بعد أن طلب كفار مكة حدوث آيات بعينها ومعجزات على هيئة ذكروها كقولهم لو حولت هذا الجبل ذهبا أو أزلت هذه الجبال فزرعنا مكانها ، فنزل عليه الوحى يخبره أنه لو شاء حقق الله الآية التى عينوها فمن كفر بعد ذلك عذبه عذابا لا يعذبه أحدا من العالمين ، ولو شاء لم يحققلهم ما طلبوا ، وترك لهم باب التوبة لعل الله يهديهم فرضى الرسول صلى الله عليه وسلم بالثانية .

وموضع الاختلاف بين هذه الأيات التى أخبرت سورة الاسراء أنها منعت لأن الأولين كذبوا بها ، وآية انشقاق

القمر ، أنهم لم يطلبوا أن ينشق القمر ، ولم يعينوا وصفا للآية ، بل يذكر المفسرون ورواة الأحاديث أنهم طلبوا آية . هكـــذا بغير تعيين ولا وصف ، ففرق بين الموضعين والله أعلم .

(وإن يروا) يعنى كفار مكة (آية) معجزة ودليلاً على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم (يعرضوا) ينصرفوا عن التأمـــل والتدبر فيها (ويقولوا سحر) أى هذا سحر ، أو هو — أو مـــا نراه ، فسحر خبر لمبتدأ محذوف (مستمر) محكم موثق من المِرَّة — بالفتح أو الكسر — بمعنى القوة ، وهو فى الأصل مصدر مررت الحبل مرة — إذا فتلته فتلا محكما ، فأريد به مطلق المحكم (١) . أو معنى (مستمر) دائم مطرد ، وكل شئ قد انقادت طريقتـــه ودامت حاله قيل فيه : قد استمر — فالكفار لما رأوا تتابـــع المعجزات وترادف الآيات قالوا : هذا سحر مستمر (٢) .

وقيل : (مستمر) من استمر الشئ اذا اشتدت مرارتـه ، أى : مستبشع عندنا ، مُرٌ على لهواتنا ، لا نقدر أن نسيغه كمـــا لا يساغ المر (٣) .

وقيل : (مستمر) بمعنى : مار ، ذاهب ، يزول ولا يبقـى — تمنية لأنفسهم وتعليلا (٤) .

---

(١) تفسير الألوسى ٢٧/٧٧ .
(٢) الكشاف ٤/٣٤٣ .
(٣) المرجع السابق نفسه .
(٤) الكشاف ٤/٣٤٣ .

والآية تفضح مسلك الكفار فى تعنتهم وإعراضهم عن تدبر آيات الحق ، وقد جاءت كلمة (آية) فى قوله تعالى : " وإن يروا آية ... " نكرة فى سياق الشرط للدلالة على العموم ، فموقفهم المكذب والمعاند مطرد مع كل آية يرونها .

وجملة (يعرضوا) جواب الشرط ، وما بعدها معطوف عليها .

(وكذبوا) النبى صلى الله عليه وسلم وبالآيات التى أظهرها الله سبحانه وتعالى على يديه (واتبعوا أهواءهم) أى زين الشيطان لهم اتباع الهوى والادعاء بأن ما ظهر على يد الرسول سحر . وقيل : كذبوا الآية التى هى انشقاق القمر ، وقالوا سحر القمر ، أو سحرت أعيننا . وجملة كذبوا معطوفة على جملة جواب الشرط . وجاءت فى صيغة الماضى للدلالة على تحقق كذبهم ، وقيل : العطف على (اقتربت) — والجملة الشرطية اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه لبيان عادتهم إذا شاهدوا الآيات .

(وكل أمر مستقر) أى كل أمر لابد أن يصير إلى غاية يستقر عليها ، وإن أمر محمد سيصير إلى غاية يتبين عندها أنه حق أو باطل ، وسيظهر لهم عاقبته ، أو وكل أمر من أمرهم وأمره مستقر ، أى سيثبت ويستقر على حالة خذلان أو نصرة فى الدنيا ، وشقاوة أو سعادة فى الآخرة [1] . والكلام مستأنف مسوق للرد على الكفار

---

(١) المرجع السابق .

فى تكذيبهم ببيان أنه لا فائدة لهم فيه ولا يمنع علو شأنه صلى الله عليه وسلم ، أولا قناطهم عما علقوا به أمانيهم الفارغة من عدم استقرار أمره عليه الصلاة والسلام حسبما قالوا : (سحر مستمر) بمعنى ذاهب وزائل . ببيان ثبوته ورسوخه ، أى وكل أمر من الأمور منته إلى غاية يستقر عليها لا محالة ومن جملتها أمر النبى صلى الله عليه وسلم (١) .

وقرئ (مستقر) بفتح القاف وتوجه على أن (مستقر) مصدر بمعنى استقرار وأخبر به مبالغة كقولنا فلان عدل بمعنى عادل . أو على أن فى الكلام تقديرا لمضاف أى وكل أمر ذو مستقر .

ويجوز أن يكون (مستقر) اسم زمان أو مكان على تقدير مضاف أيضا .

وقرئ (مستقر) بكسر القاف والجر على أنه صفة لأمر ، وأن كل أمر معطوف على الساعة فى قوله (اقتربت الساعة) أى اقتربت الساعة واقترب كل أمر مستقر .

وقيل هو على الجر للجوار ومع ذلك فهو خبر كل .

وقيل هو صفة لأمر ، والخبر مقدر تقديره آت أو معمول به ونحوه .

وقيل الخبر هو قوله تعالى فيما بعد (حكمة بالغة) وآية

---

(١) الألوسى ٢٧/٧٨ .

(ولقد جاءهم ...) اعتراض بين المبتدأ والخبر [1] .

(ولقد جاءهم) يعنى أهل مكة (من الأنباء) أى أخبار القرون الخالية والأمم السابقة ، أو أنباء الآخرة وما وصفت من عذاب الكفار . والجار والمجرور فى موضع الحال من (ما) فى قوله (ما فيه مزدجر) قدم عليه رعاية للفاصلة .

و (ما) فى محل رفع فاعل و (من) للتبيين أو التبعيض .

و (مزدجر) بمعنى ازدجار وهو المنع . أى جاءهم من الأنباء ما فيه ازدجار ومنع لهم من ضلالهم وتكذيبهم ، أو مزدجر اسم مكان أى جاءهم من الأنباء ما فيه موضع ازدجار لهم ومنع ، وهى أنباء الوعيد والعذاب للمكذبين .

و (مزدجر) أصلها مزتجر قلبت تاء الافتعال دالاً للتناسب . وقرئ (مزجر) بقلب التاء زايا وإدغامها فى الزاى . وقرئ (مزجر) اسم فاعل من أزجر أى صار ذا زجر كأعشب صار ذا عشب .

(حكمة بالغة) واصلة غاية الإحكام لا خلل فيها .

و (حكمة) مرفوعة على أنها بدل كل أو اشتمال من (ما) ، وقيل من (مزدجر) أو خبر مبتدأ محذوف تقديره هى أو هذه ، أو خبر لكل أمر — على قراءة — وقرئ (حكمةً) بالنصب على أنها حال من (ما) بوصفها موصولة أو نكرة موصوفة .

---

(١) راجع هذه التوجيهات فى الألوسى ٢٧/٧٨ .

(فما تغن النذر) نفي للإغناء ، أو استفهام إنكاري ، وبوصف (ما) استفهامية تكون في محل نصب على أنها مفعول مطلق أي : فأي إغناء تغني النذر ، ويمكن أن تكون في محل رفع على أنها مبتدأ ، وجملة (تغني) خبرها والعائد مقدر أي : فما تغنيه النذر ، والنذر : جمع نذير بمعنى المنذر ، أو بمعنى الإنذار .

(فتولَّ عنهم) الخطاب لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، و (تول) فعل أمر مبني على حذف حرف العلة والفاء تفيد السببية لأن التولي أو الأمر به مسبب عن عدم الإغناء الذي تقدم الكلام عنه والمراد بالتولي عدم القتال ، فتكون الآية منسوخة بآيات الأذن بالقتال التي نزلت بعد الهجرة . أو المراد بالتولي ترك الجدال فهي محكمة . والضمير في (عنهم) يعود إلى كفار مكة .

(يوم يدع الداع) يوم — ظرف — ليخرجون — أو مفعول به لا ذكر مقدرا ، ويجوز أن يكون ظرفا لـ (تغن) أو لـ (مستقر) أو ظرفا لـ (يقول الكافرون) أو ظرفا لـ (تول) والمعنى : تول عن الشفاعة لهم يوم القيامة .

أو الكلام على تقدير (إلى) والمعنى — فتول عنهم إلى يوم يدع الداع — والمراد استمرار التولي (١) .

---

(١) الألوسي ٢٧/٧٩ .

والداعى هو إسرافيل — عليه السلام — أو جبرائيل — عليه السلام — أو ملك غيرهما . ويمكن أن يكون الداعى هو الله سبحانه وتعالى ودعوته معناها توجه إرادته سبحانه وتعالى إلى اعادة الخلق وبعثهم . وحذفت الواو من (يدع) لفظا لالتقاء الساكنين وحذفت فى الرسم اتباعا للفظ . وحذفت الياء من (الداع) تخفيفا .

(إلى شئ نكر) يعنى إلى شئ فظيع تنكره النفوس والعقول لعدم تصوره قبلا . و (نكر) صفة على وزن فُعُل مثل قولهم : روضة أنف .

وقرئ (نكر) بكسر الكاف على أنه فعل ماض بمعنى أنكر ، والانكار ضد الاقرار .

والمراد بالشئ هول يوم القيامة .

(خشعاً أبصارهم) حال من فاعل (يخرجون) وهو الواو العائدة على الكفار . (من الأجداث) الأجداث هى القبور ، مفردها جدث . والمعنى : يخرجون من قبورهم أذلة خاشعين من شدة الهول وإنما ذكر الأبصار هنا لأن ذلة الذليل وعزة العزيز تظهران فى عيونهما (١) .

وتقدمت الحال فى الآية على العامل لتصرفه ، وللاهتمام ببيانها

---

(١) الكشاف ٤/ ٣٤٤ .

و (أبصارهم) فاعل (خشعا) وقد تطابق الوصف وفاعله فى الجمع لأن الوصف هنا ليس جمع مذكر سالم ، فهو لا يشبه الفعل فى اللفظ . وهذا بخلاف ما إذا كان الوصف جمع مذكر سالم فإن زنته وشبهه للفعل لا يتغيران ، فينبغى ألا يجمع الوصف إذا رفع الظاهر المجموع على اللغة الفصيحة دون لغة (أكلونى البراغيث)

وفى التسهيل : إذا رفعت الصفة اسما ظاهرا مجموعا فان أمكن تكسيرها — كمررت برجل قيام غلمانه — فهو أولى من إفرادها — كمررت برجل قائم غلمانه — وهذا قول المبرد ومن تبعه .

وقال الجمهور : الإفراد أولى .

وقيل : إن تبع الوصف مفرداً فالإفراد أولى — كرجل قائم غلمانه — وان تبع جمعا فالجمع أولى — كرجال قيام غلمانهم — هذا اذا كان الوصف غير مثنى ولا جمع مذكر سالم — كما ذكر — .

هذا ويمكن أن تبعد الآية عن ميدان هذا النقاش النحوى بتقدير ضمير مستتر فى (خشعا) تقديره (هم) وأبصارهم بدل منه

وفى الآية قراءات أخرى تخرجها أيضا من هذا النقاش . فقد قرئت (خاشعا أبصارهم) و (خاشعة أبصارهم) و (خشع أبصارهم) وعلى القراءة الأخيرة (خشع) خبر مقدم ، و (أبصارهم) مبتدأ موءخر ، والجملة فى موضع نصب حال [١] .

---

(١) راجع روح المعانى للألوسى ٢٧/٨٠ .

(كأنهم جراد منتشر) الجراد يضرب به المثل فى الكثـــــرة والتموج والجملة حال من فاعل (يخرجون) شبههم بالجراد المنتشر فى الكثرة والتموج والانتشار فى الأقطار ، وجاء تشبيههم فى موضــع آخر بالفراش المبثوث(سورة القارعة) ولهم يوم الخروج سهم مـن الشبه لكل . وقيل: يكونون أولا كالفراش حين يموجون فزعـــين لا يهتدون أين يتوجهون لأن الفراش لا جهة لها تقصدها . ثــم كالجراد المنتشر إذا توجهوا إلى المحشر فهما تشبيهان باعتبـــار وقتـــين (١) .

(مهطعين إلى الداع) مسرعين إليه . قال أبو عبيدة : وزاد بعضهم : مادى أعناقهم ، وآخر مع هز ورهق ومد بصر . وقـــال عكرمة : فاتحين آذانهم إلى الصوت . وعن ابن عباس : ناظريـــن إليه لا تقلع أبصارهم عنه . وقال سفيان : شاخصة أبصارهم إلى السمــــاء .

وقيل : أصل الهطع : مد العنق أو مد البصر ، ثم يكنى به عن الإسراع ، أو عن النظر والتأمل . وهكذا يمكن أن تلتقى هـــــذه الأوصاف جميعها فى حالة الكفار وهم يخرجون من قبورهم تقرع آذانهم دعوة الداعى وتذهلهم مشاهد الهول ومخاوف العاقبة فيسرعون فــى سعيهم إلى المحشر يهزون الأعناق ويمدون الأبصار فى هلع وخـوف

---

(١) المصدر السابق .

واستكشاف لما ينتظرهم من عواقب ٠

(يقول الكافرون هذا يوم عسر) صعب شديد لما يشاهدون فيه من أهوال شديدة ، وما ينتظرهم من عواقب سيئة ٠ وفى إسناد القول المذكور إلى الكفار تلويح بأنه على المؤمنين ليس كذلك (١)

التفسير من الآية (٩) الى (١٧)

" كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ (٩) فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ (١٠) فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢) وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (١٣) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ (١٤) وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (١٥) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (١٦) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (١٧) " ٠

(كذبت قبلهم) قبل كفار مكة (قوم نوح فكذبوا عبدنا) وهذا شروع فى الحديث عن مصائر الكافرين الذين كذبوا الرسل فى العهود الغابرة قبل بعثة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، والحديث عن هؤلاء المكذبين وبيان عاقبة ضلالهم هو بعض ما أشارت إليه الآيات السابقة فى قوله تعالى : " ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر " ٠

---

(١) روح المعانى ٨١/٢٧ ٠

ومعنى (كذبت قبلهم قوم نوح) فعلت التكذيب بالرسل قبل قومك قوم نوح . وقوله (فكذبوا عبدنا) تفسير لذلك التكذيب المذكور قبلا ، وأعاد ذكره لمزيد التحقيق والتقرير .

أو المعنى : كذبوا فكذبوا عبدنا . أى كذبوه تكذيبا على عقب تكذيب ، كلما مضى منهم قرن مكذب تبعه قرن مكذب . أو كذبت قوم نوح الرسل فكذبوا عبدنا ، أى : لما كانوا مكذبين بالرسل جاحدين للنبوة رأسا كذبوا نوحا لأنه من جملة الرسل[1] ، وعلى ذلك فالفاء هنا تفيد السببية .

وقيل : معنى كذبت . قصدت التكذيب وابتدأته ، ومعنى فكذبوا . أتموه وبلغوا نهايته .

وفى ذكر نوح عليه السلام بلفظ (عبد) المضاف إلى ضمير العظمة تشريف له عليه السلام وإيماء إلى شناعة فعل المكذبين إذ كذبوه . (وقالوا مجنون) فلم يكتفوا بتكذيبه والإعراض عما جاء به من الحق ، بل رموه بالجنون افتراء وظلما (وازدجر) يمكن أن يكون العطف على — قالوا — وهو اخبار من الله سبحانه وتعالى عن فعل قوم نوح به ، يعنى كذبوه وقالوا مجنون وزجروه عن التبليغ بالتهديد والتخويف ويشهد لهذا التفسير قول الله سبحانه فى موضع آخر حكاية عن قوم نوح " لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين "

قال بذلك ابن زيد . وقال مجاهد : العطف فى (وازدجر)

---

(١) الكشاف ٤/٣٤٤ .

على (مجنون) فهو من تمام قولهم ، أى قالوا : مجنون ، وقد ازدجرته الجن وذهبت بلبه وتخبطته .

قال الألوسى : والأول أظهر وأبلغ ، وجعل الفعل مبنيـــا للمفعول لغرض الفاصلة وطهر الألسنة عن ذكرهم للدلالة علـــى أن فعلهم أسوأ من قولهم . [1] (فدعا) نوح (ربه أنى مغلوب) أى : بأنى مغلوب . غلبنى قومى ومنعونى من تبليغ رسالتك وصدوا عـــن سبيلك ، وليس لى بهم طاقة . (فانتصر) فانتقم لى منهـــم ، أو فانتصر لدينك الذى حاربوه ورسولك الذى كذبوه . (ففتحنا أبـــواب السماء بماء منهمر) العطف بالفاء هنا يفيد سرعة إجابة الله سبحانه وتعالى لنداء رسوله وعبده نوح عليه السلام وتحقيق دعوته . والمـــاء المنهمر هو المنصب بشدة والباء فى قوله : بماء للآلة كقولك فتحـــت الباب بالمفتاح ، وجوز أن تكون للملابسة . وهل المقصود تشبيه تدفق المطر من السحاب بانصباب الأنهار المتدفقة من أبواب السماء علـــى سبيل الاستعارة ؟ أم أن الكلام على الحقيقة .

ذهب الجمهور إلى القول بأنه تشبيه . وذهب قوم إلى أنه علـــى حقيقته . روى عن ابن عباس : لم تمطر السماء قبل ذلك اليـــوم ولا بعده إلا من السحاب ، فتحت أبواب السماء بالماء من غير سحاب ذلك اليوم [2] .

---

(١) روح المعانى ٢٧/٨١ .
(٢) ابن كثير

(وفجرنا الأرض عيونا) جعلنا الأرض كلها عيونا متفجرة بالماء .

يقول المفسرون : أصل التعبير : وفجرنا عيون الأرض ، فعدل عنه إلى أسلوب التمييز المحول للمبالغة بجعل الأرض كلها متفجرة ، ونظيره فى النظم القرآنى (واشتعل الرأس شيبا) .

وذهب قوم إلى أن عيونا حال مقدرة ، ويمكن أن تكون مفعولا ثانيا لفجرنا على تضمينه معنى صيرنا . أى صيرنا الأرض بالتفجير عيونا .

وحمل الكلام على هذا الوجه أولى فى رأيى لدلالته على أن الأرض كلها صارت عيونا متفجرة بالماء حقيقة لا مبالغة ، وذلك أنسب لهول الطوفان كما وصفت مشاهده فى كتاب الله والأخبار الصحيحة . (فالتقى الماء) ماء السماء المنهمر ، وماء الأرض المتفجر والإفراد لتحقيق أن التقاء الماءين لم يكن بطريق المجاورة ، بل بطريق الاختلاط والاتحاد (1) .

وقرئ : الماآن . والتثنية لبيان اختلاف النوعين ، وقيل : فى التثنية إشارة الى أن ماء الأرض فاربقوة وارتفع حتى لاقى ماء السماء .

(على أمر قد قدر) يعنى — على حال قدرها الله وعلمها وشاءها وأحكمها وقيل : على حال جاءت مقدرة مستوية متناسبة وهى أن قدر ما نزل من السماء من المياه مساو لما خرج من الأرض سواء

---

(1) روح المعانى ٢٨/٢٧ .

بسواء ، وقيل : على أمر قد قدر فى اللوح المحفوظ أنه سيكون وهو هلاك قوم نوح بالطوفان .

(وحملناه) أى حملنا نوحا — عليه السلام — ومن معه من المؤمنين (على ذات ألواح ودسر) هى السفينة . والألواح هى الأخشاب العريضة ، والدسر : المسامير — جمع دسار وهو المسمار ، فعال من دسره — إذا دفعه — لأنه يدسر به منفذه .

وذات ألواح ودسر . من الصفات التى تقوم مقام الموصوفات فتنوب منابها وتؤدى مؤداها — وكما يكنى عن السفينة بذات ألواح ودسر ، يكنى عن الدرع بـ (مسرودة من حديد) وعن الجراد بـ (النازيات بأكرع) أى الواثبات بأرجل دقيقة .

(تجرى بأعيننا) ، الضمير فى (تجرى) يعود إلى السفينة (بأعيننا) بمرأى منا — كناية عن الحفظ والرعاية . وقيل : المعنى — بأوليائنا — وهم نوح ومن معه — يقال لولى الله عين من عيونه — ويقال : بأعين ملائكتنا الذين وكلناهم لحفظهم . ويقال بأعين الماء الذى أنبعناه من الأرض [١] .

(جزاء) مفعول لأجله — أى فعلنا ما فعلنا من أمر إغراق قوم نوح بالطوفان وإنجائه هو ومن معه فى السفينة من أجل المجازاة والثواب والعقاب (لمن كان كفر) وهو نوح — عليه السلام — وعلى ذلك فالرسول نعمة من الله لم يعرف قدرها المكذبون ، فهم بتكذيبهم قد كفروا النعمة . ويجوز أن يكون الكلام على تقدير (به) فيكون

---

(١) انظر : لطائف الإشارات للإمام القشيرى ٦ / ٦٤ .

الكفر هنا ضد الإيمان — وليس كفراً للنعمة ·

وعن ابن عباس ومجاهد : المراد بـ (من كان كفر) هو اللـه تعالى · كأنه قال : غضبا وانتصارا لله عز وجل ·

وفى قراءة (كفر) مبنيا للفاعل ، وعليها فالمراد بـ (من) هم قوم نوح — وفى هذه القراءة دليل على وقوع الماضى بغير (قد) خبرا لكان — وهو مذهب البصريين — وغيرهم يقول لابد من (قد) ظاهرة أو مقدرة ، وجوز أن تكون (كان) زائدة ، كأنه قيل : جزاء لمن كفر ولم يؤمن (١) .

(ولقد تركناها آية) يعنى أبقينا سفينة نوح علامة على قدرة الله وأخذه الظالمين وإهلاكه إياهم وإنجاء المؤمنين ، وذلك على ما روى عن قتادة أنه بقى خشبها على جبل الجودى حتى رآه أوائل هذه الأمة · أو أبقينا جنسها وهو السفن ، فتسييرها فى البحر آية من آيات الله — كما ورد ذلك فى مثل قوله : " وآية لهم أنا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون " وفى مثل قوله : " ··· وترى الفلك فيه مواخر ··) ويمكن أن يكون تركنا بمعنى جعلنا والضمير فيه يعود على الفعلة نفسها وهى إهلاك المكذبين وإنجاء المؤمنين ·

(فهل من مدكر) فهل من أحد يتعظ بآيات الله ويذكر نفسه بقدرة ربه ويخوفها من عاقبة غضبه ، فيسلك سبيل المؤمنين ، ويجتنب سبيل المكذبين ، وأصل مدكر — مذتكر — قلبت تاء الافتعال

---

(١) راجع : روح المعانى ٢٧/٨٣ ·

دالا ثم قلبت الذال قبلها دالا وأدغمتا . وقرئ مُذَّكر ، وقرئ مُذَّكِّر — من التذكير . (فكيف كان عذابى ونذر) استفهام تعظيم وتعجيب من أنواع العذاب التى أخذ الله بها الظالمين وألوان النذر التى أنذرهم بها — أى كانا على كيفية هائلة لا يحيط بها الوصف . ويحتمل أن تكون (كان) ناقصة و (عذابى) اسمها و (كيف) فى محل نصب خبرها . ويحتمل أن تكون تامة — وكيف — فى موضع الحال .

يقول الإمام القشيرى : " وقد ذكر قصة نوح هنا على أفصح بيان وأقصر كلام وأتم معنى وكان نوح — عليه السلام — أطول الأنبياء عمرا وأشدهم للبلاء مقاساة " .

ثم ان الله — سبحانه — لما نجى نوحا متعه بعد هلاك قومه ومتع أولاده ، فكل من على وجه الأرض من أولاد نوح عليه السلام ، وفى هذا قوة لرجاء أهل الدين ، إذا لقوا فى دين الله محنة ، فان الله يهلك — عن قريب — عدوهم ، ويمكنهم من ديارهم وبلادهم ويورثهم ما كان إليهم " (١)

(ولقد يسرنا القرآن) الخ جملة قسمية وردت فى آخر القصص الأربع (المذكورة فى السورة) تقريراً لمضمون ما سبق من قوله تعالى : " ولقد جاءهم " .. الخ وتنبيها على أن كل قصة منها مستقلة فى

---

(١) لطائف الاشارات ٦ / ٦٤ — ٦٥ .

إيجاب الإذكار ، كافية في الازدجار ، ومع ذلك لم يحصل منها اعتبار . أي وبالله لقد سهلنا القرآن لقومك بأن أنزلناه على لغتهم وشحناه بأنواع المواعظ والعبر وصرفنا فيه من الوعيد والوعد (للذكر) أي للتذكر والاتعاظ . (فهل من مدكر) إنكار ونفي للمتعظ على أبلغ وجه وآكده يدل على أنه لا يقدر أحد أن يجيب المستفهم بنعم .

وقيل : سهلنا القرآن للحفظ لما اشتمل عليه من حسن النظم وسلاسة اللفظ وشرف المعاني وصحتها وعروه عن الوحشي ونحوه فله تعلق بالقلوب وحلاوة في السمع فهل من طالب لحفظه ليعان عليه ؟ (١) ولهذا يروى أن كتب أهل الأديان نحو التوراة والإنجيل لا يتلوها أهلها إلا نظرا ولا يحفظونها ظاهرا كالقرآن" (٢)

وعن مجاهد : يسرنا القرآن — هونا قراءته . وعن ابن عباس : لولا أن الله تعالى يسره على لسان الآدميين ما استطاع أحد من الخلق أن يتكلم بكلام الله تعالى .

وعن ابن سيرين أنه مر برجل يقول : سورة خفيفة ، فقال : لا تقل ذلك ، ولكن قل سورة يسيرة لأن الله تعالى يقول (ولقد يسرنا القرآن للذكر) (٣) .

---

(١) روح المعاني ٨٤/٢٧ .
(٢) الكشاف ٣٤٧/٤ .
(٣) روح المعاني ٨٤/٢٧ .

ويجوز أن يكون (يسرنا) بمعنى هيأنا من يسر ناقتـــه للسفر :إذا رحلها ، ويسر فرسه للغزو : إذا أسرجه وألجمه . قال الشاعر :

وقمت إليه باللجام ميســرا

هنالك يجزيني الذى كنت أصنع (١)

ويقال في معنى (ولقد يسرنا القرآن للذكر) : يسرنا قراءته علـى ألسنة الناس ، ويسرنا علمه على قلوب قوم ، ويسرنا فهمه على قلـوب قوم ، ويسرنا حفظه على قلوب قوم ، وكلهم أهل القرآن ، وكلهم أهل الله وخاصته .

ويقال : كاشف الأرواح من قوم — بالقرآن — قبل إدخالها في الأجساد .

(فهل من مدكر) لهذا العهد الذى جرى لنا معه (٢) .

التفسير من الآية (١٨) الى (٢٢)

" كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ (١٨) إِنَّا أَرْسَلْنَـا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ (١٩) تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُـمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ (٢٠) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ (٢١) وَلَقَدْ يَسَّرْنَـا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُدَّكِرٍ (٢٢) " .

---

(١) الكشاف ٤/٣٤٦ .

(٢) لطائف الاشارات ٦/٦٥ .

بعد أن ذكر قصة قوم نوح وبين مصيرهم وجزاء تكذيبهم شرع فى ذكر قصة أخرى من قصص الأنبياء مع أقوامهم ، وعاد الذين ذكروا فى هذه الآيات هم قوم هود — عليه السلام — ولم يعطف القرآن هذه القصة على سابقتها اشارة إلى أن كل واحدة من هذه القصص مستقلة فى القصد والاتعاظ وكان قوم عاد عربا يسكنون الأحقاف — وهى جبال الرمل — وكانت باليمن بين عمان وحضرموت بأرض مطلة على البحر يقال لها الشحر . وعاد هم أول من عبد الأصنام بعد الطوفان ، فبعث الله فيهم أخاهم هودا عليه السلام — فدعاهم إلى الله [1] .

وقصة هود مع قومه مذكورة فى مواضع عدة من القرآن ، شأنها فى ذلك شأن غيرها من قصص الأنبياء مع أقوامهم ، وقد أوردت سورة الأعراف طرفا من الحوار الذى دار بين هود — عليه السلام — وقومه يقول الله تعالى : " وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ . قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ . قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ . أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ . أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً ۖ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ .

---

(١) انظر قصص الأنبياء لابن كثير حـ ١ ص ١٢١ .

قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ. فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ » (١)

ولم تفصل آيات سورة القمر كيفية تكذيب قوم عاد لنبى الله هود — عليه السلام — وسارعت إلى بيان ما نزل بهم من عقاب، ووجهت الآيات العقول والقلوب ولفتت الأنظار ، لكى يتأمل السامعون بكل حواسهم مشاهد هذا العذاب الأليم ، لعل هذا التأمل أن يثمر ثمرته فيزدجر أولو الغى عن غيهم ويثوبوا إلى رشدهم ٠

هكذا ورد الإخبار عن تكذيبهم ولفت الأنظار إلى ما أخذوا به من عذاب فى آية واحدة قصيرة : (كذبت عاد فكيف كان عذابى ونذر) ٠

وفصلت الآيات بعد ذلك العذاب (انا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا) سلطنا عليهم ريحا باردة شديدة الصوت عاتية مفزعة (فى يوم نحس) يعنى فى يوم شوءم عليهم ووبال ، وقرئ بتنوين يوم على أن (نحس) صفة له كقوله (فى أيام نحسات) (مستمر) ، قد استمر عليهم هذا الشوءم حتى أهلكهم ، أو استمر عليهم جميعا كبيرهم وصغيرهم حتى لم يبق منهم نسمة ٠

---

(١) سورة الأعراف

ويجوز أن يريد بالمستمر الشديد المرارة والبشاعة [1] (تنزع الناس) تقتلعهم من شدتها وتطوح بهم فتهلكهم ، وكانوا يصطفون آخذا بعضهم بأيدى بعض ويتداخلون فى الشعاب ، ويحفرون الحفر فيندسون فيها محاولين بذلك كله مقاومة ريح الهلاك المسلطة عليهم وأنى لهم أن يقاوموا عذاب الله ، فان الريح كانت تنتزعهم وتكبهم وتدق أعناقهم وتتركهم صرعى (كأنهم أعجاز نخل منقعر) وأعجاز النخل هى أصولها بلا فروع ، ومنقعر — يعنى منقلع عن مغارسه ، وشبههم بأعجاز النخل — خاصة لأنهم كانوا طوالا ، وأفاد ذكر (منقعر) أن هذه الأعجاز ملقاة على الأرض منقلعة عن مغارسها ، وكذلك كان القوم • وقيل : شبهوا بأعجاز النخل لأن الريح كانت تقطع رءووسهم فتبقى أجسادا بلا رءوس [2] (فكيف كان عذابى ونذر) لفت آخر إلى تدبر عواقب المكذبين الذين لم يعتبروا بالآيات • وتفخيم وتعجيب لأمر العذاب والنذر • (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) •

دعوة ثانية للتذكر بالقرآن والانتفاع بما ورد فيه من عبر وعظات وحكم نافعات •

---

(١) الكشاف ٣٤٧/٤ •

(٢) المرجع السابق •

التفسير من الآية (٢٣) الى (٣٢)

" كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ (٢٣) فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٢٤) أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ (٢٥) سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ (٢٦) إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ (٢٧) وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ (٢٨) فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ (٢٩) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٠) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ (٣١) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (٣٢)

(كذبت ثمود) هم قوم صالح — عليه السلام — أرسل الله فيهم صالحا يدعوهم إلى عبادة الله وحده ويذكرهم بآلائه ونعمه ، ويحذرهم من سوء العاقبة التى وقع فيها المكذبون ، فلم يستجيبوا لنصحه ، وتمادوا فى ضلالهم وكذبوا (بالنذر) التى ساقها إليهم صالح عليه السلام .

(فقالوا أبشرا منا) هذه حجتهم فى تكذيب رسول الله إليهم ، وهى أنه بشر منهم ، ونصب (بشرا) بفعل محذوف يفسره الفعل المذكور بعد . والتقدير : أنتبع بشرا .و (منا) جار ومجرور فى موضع الصفة لبشر (واحدا) صفة أخرى لبشر — استعظموا أن يتبعوا رجلا منهم منفردا ، أو واحدا من آحادهم لا من أشرافهم — كما يفهم من التنكير .

وقرئ (أبشر) بالرفع على أنه مبتدأ وجملة (نتبعه) خبره (إنا إذاً) أى إننا إن اتبعنا صالحاً (لفى ضلال) بعد عن الصواب (وسُعُر) نيران — جمع سعير — كذير ونذر وسبيل وسبل ، كان صالح — عليه السلام — يحذرهم من عقاب الله ، فيقول لهم : إن لم تتبعونى كنتم فى ضلال وسعر ، فعكسوا عليه كلامه قائلين : إنا إن اتبعناك كنا إذاً كما تقول .

وفى رواية عن ابن عباس . يفسر السعر بالجنون على أنه اسم مفرد . يقال : ناقة مسعورة . إذا كانت تفرط فى سيرها كأنها مجنونة . قال الشاعر يصف ناقته بالسرعة :

كأنَّ بِها سُعُراً إذا العِيسُ هَزَّها
ذَمِيل وإرْخاءٌ من السَّيْرِ مُتْعِبُ (١)

هكذا حملهم جهلهم على المكابرة والمغالطة ، واستكبروا أن يتبعوا بشرا مثلهم وأكدوا هذه المماثلة بقولهم (منا) ويبدو أن الكفار فى كل عهد كانوا يبررون تكذيبهم بأن المرسل فيهم بشر مثلهم " وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا " .

واستعظم قوم صالح أن تتبع أمتهم رجلاً واحداً ، ليس بأشرفهم وأفضلهم — فى تصورهم ، ووفق موازينهم الفاسدة ، وبمقتضى تقييمهم الأحمق ، وقالوا (أ ألقى الذكر عليه من بيننا) أيمكن أن يختص هو دوننا بنزول الوحى عليه ، إنّ هذا لا يكون (بل هو

---

(١) الكشاف ٤/٣٤٨ .

كذاب أشر) يرمون صالحا — عليه السلام — بالكذب ومعنى أشر — شديد البطر — حمله بطره وطلبه التعظم علينا على إدعاء النبوة . انتهى كلامهم الباطل ، واتهامهم الكاذب ، ورد الله عليهم زعمهم ، وتوعدهم : (سيعلمون غداً من الكذاب الأشر) والسين لتقريب مضمون الجملة وتأكيده ، والمراد بالغد وقت نزول العذاب الدنيوى بهم أو المراد به يوم القيامة . والمعنى : سيعلم قوم صالح المكذبون قريبا أنهم هم الكذابون البطرون الذين حملهم كبرهم وعنادهم على الكفر ، لكنه لم يصرح بذلك وأورد الكلام مورد الابهام إيماء الى أنه مما لا يكاد يخفى ونحوه قول الشاعر :

فَلَئِنْ لَقِيتُكَ خَالِيَيْنِ لَتَعْلَمَنَّ
أيّى وأيّك فَارِسَ الأَحْزَابِ (١)

وقرئ (ستعلمون) بدل (سيعلمون) على أنه حكاية لما قاله صالح مجيبا لهم ، أو هو كلام الله تعالى على سبيل الالتفات — كما قرئ (الأشر) بفتح الشين وتشديد الراء على أنه أفعل تفضيل ، أى الأبلغ فى الشر . وقرئ بضم الشين .

(إنا مرسلو الناقة) ذكر المفسرون (أن ثمود (قوم صالح) اجتمعوا يوما فى ناديهم ، فجاءهم رسول الله صالح فدعاهم الى الله وذكرهم وحذرهم ووعظهم وأمرهم فقالوا له : إن أنت أخرجت لنا من هذه الصخرة — وأشاروا إلى صخرة هناك — ناقة من صفتها

---

١) روح المعانى ٢٧/٨٩ .

كيت وكيت وذكروا أوصافاً سموها ونعتوها وتعنتوا فيها ، وأن تكون عشراء طويلة من صفتها كذا وكذا ، فقال لهم النبى صالح — عليه السلام — أرأيتم إن أجبتكم إلى ما سألتم على الوجه الذى طلبتم ، أتؤمنون بما جئتكم به وتصدقونى فيما أرسلت به ؟ قالوا : نعم ، فأخذ عهودهم ومواثيقهم على ذلك .

ثم قام إلى مصلاه فصلى لله عز وجل ما قدر له ، ثم دعا ربه — عز وجل — أن يجيبهم إلى ما طلبوا ، فأمر الله — عز وجل — تلك الصخرة أن تنفطر عن ناقة عظيمة عشراء ، على الوجه المطلوب الذى طلبوا ، أو على الصفة التى نعتوا) (١)

فقول الله سبحانه (إنا مرسلوا الناقة) إخبار منه بأنه سيجيبهم إلى ما طلبوا ، وسيرسل الناقة ويخرجها من الصخرة آية على قدرته ودليلاً على صدق رسوله صالح (فتنة لهم) واختباراً لهم ، (فارتقبهم) فانتظرهم وتبصر ما هم فاعلون (واصطبر) على أذاهم وتكذيبهم ، فان الله عما قريب سيهلكهم . (ونبئهم) الخطاب لصالح (أن الماء قسمة بينهم) أخبرهم أن الله أمر أن يكون ماء البئر الذى لهم قسمة بينهم وبين الناقة ، يردونه يوما وترده الناقة يوما ، وقال بينهم لتغليب العقلاء . (كل شرب محتضر) يحضره صاحبه فى نوبته ، فتحضر الناقة تارة ، ويحضرونه تارة أخرى ، وقيل

---

(١) قصص الأنبياء ١/١٥٢ .

يتحول عنه غير صاحبه ، من قولهم : حضر عن كذا — تحول عنه .

بعد ما أرسل الله الناقة كما طلبوا ، وأمرهم بهذه القسمة آمن بالمعجزة كثير منهم ، واستمروا على هذا الحال فترة ، ثم ملوا ذلك وعزموا على عقر الناقة (فنادوا صاحبهم) واحدا منهم لعقر الناقة وكان يسمى قدار بن سالف (فتعاطى فعقر) فاجترأ على تعاطى قتلها فقتلها ، أو فتعاطى السيف فقتلها ، والتعاطى : تناول الشئ بتكليف[1] فمفعول تعاطى محذوف والفاء للتفريع أو التفسير . (فكيف كان عذابى ونذر) تنبيه إلى كيفية إهلاكهم ، ولفت للأنظار إلى مصارعهم وتهويل وتفخيم وتعجيب من أمر ذلك العذاب الذى هو نذير للمكذبين بعدهم .

(إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة) أهلكناهم بالصيحة . صاح فيهم جبريل — عليه السلام — صيحة واحدة ، فلم يطيقوها (فكانوا) أى فصاروا (كهشيم المحتظر) كالشجر اليابس المتكسر الذى يتخذه من يعمل حظيرة لماشية فى الشتاء . وقرئ (المحتظر) بفتح الظاء — على أنه موضع الاحتظار : أى الحظيرة [2] .

(ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) تجديد للدعوة إلى الاعتبار بالقرآن وتدبر آياته وتذكر حكمه وعظاته .

---

(١) تفسير البيضاوى ٦٧٣/٢٧ .
(٢) الكشاف ٣٤٨/٤ .

التفسير من الآية (٣٣) الى (٤٠)

" كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ (٣٣) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ (٣٤) نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ (٣٥) وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ (٣٦) وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٧) وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ (٣٨) فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٩) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (٤٠) "

شرع فى ذكر قصة أخرى من قصص الأنبياء مع أقوامهم ، هى قصة سيدنا لوط — عليه السلام — مع قومه وكانوا قوم سوء ، فاسقين ، يتسابقون إلى السيئات ، ويأتون المنكرات ، ويخونون الصديق ، ويقطعون الطريق ، وابتدعوا فاحشة لم يسبقهم إليها أحد من بنى آدم ، وهى إتيان الذكران وترك ما خلق الله لهم من المتعة الحلال بزوجاتهم .

أرسل فيهم لوط — عليه السلام — ليصلح ما فسد فيهم ، ويقوم ما اعوج من سلوكهم ، ويطهر عقيدتهم من الزيغ والضلال فأخذ — عليه السلام — يعظهم ويدعوهم وينذرهم لكنهم كما أخبر الله عنهم — لم يستجيبوا لنصح ، ولم ينتفعوا بوعظ ، فأهلكهم ربهم ودمر مدينتهم — وكانت تسمى سدوم — وأورد القرآن هذه القصة فى مواضع كثيرة ، وأشار إلى إهلاك قوم لوط كما فى مثل قوله

تعالى : " فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ ، مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ " (١)

وقوله تعالى : (كذبت قوم لوط بالنذر) يعنى كذبوا بها ولم ينتفعوا بالنذر التى ساقها إليهم ووعظهم بها (إنا أرسلنا عليهم حاصباً) بعثنا عليهم ريحا ترميهم بالحجارة ، أو ملكا يحصبهم — أى يرميهم بالحصباء والحجارة ، أو الحاصب اسم للريح التى تحصب — وقال ابن عباس : هو ما حصبوا به من السماء من الحجارة فى الريح (٢) (إلا آل لوط نجيناهم بسحر) استثنى من العذاب والهلاك المؤمنين مع لوط ، فقد نجاهم الله ، والسحر هو آخر الليل ، أو السدس الأخير منه .

(نعمة من عندنا) إنعاما من عندنا ، فهو مفعول لأجله (كذلك نجزى من شكر) بمثل هذا الإنجاء وبمثل هذا الإنعام نجازى من شكر النعمة وآمن بالله (ولقد أنذرهم) أنذر لوط قومه وحذرهم (بطشتنا) أخذتنا الشديدة وغضبتنا المهلكة (فتماروا) كذبوا وشكوا وجادلوا وأنكروا (بالنذر) التى أرسلها الله إليهم . (ولقد راودوه عن ضيفه) أرسل الله بعضا من ملائكته إلى لوط — عليه السلام — فى صورة رجال على أحسن صورة ، ولم يكن يعرف أنهم ملائكة ، وطلبوا منه أن يضيفهم ، وعلم قومه بأن عنده رجالا على

---

(١) الآيات — ٨٢ — ٨٣ سورة هود .
(٢) روح المعانى ٩٠/٢٧ .

درجة كبيرة من الحسن ، فذهبوا اليه وطلبوا منه أنه يخلى بينهم وبينهم ، فأخذ يدفعهم ، ويحمى ضيفه ، والقوم مصرون على الفجور بهم ، فقال الملائكة للوط : إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ .

وذكر المفسرون أن جبريل — عليه السلام — خرج عليهم فضرب وجوههم خفقة بطرف جناحه فطمست أعينهم ، حتى قيل إنها غارت بالكلية ولم يبق لها محل ولا عين ولا أثر (١) .

فذلك قوله تعالى (فطمسنا أعينهم) (فذوقوا عذابى ونذر) قيل لهم ذلك على ألسنة الملائكة تبكيتا لهم وإهانة (ولقد صبحهم بكرة ، أرسل عليهم أول النهار (عذاب مستقر) ثابت قد استقر عليهم إلى أن يفضى بهم إلى عذاب الآخرة .

هكذا طمس الله أعين النفر الذين تجرءوا وذهبوا إلى لوط فى بيته ليراودوه عن ضيفه ، ومع أن هذا وقع من بعضهم فقد أهلكهم الله جميعا اقتلع جبريل مدينتهم وما يتبعها من أراضى وأماكن وما فيها من إنسان وحيوان ، فرفع الجميع حتى بلغ بهن عنان السماء حتى سمعت الملائكة أصوات ديكتهم ونباح كلابهم ، ثم قلبها عليهم ، فجعل عاليها سافلها ثم أمطر الله عليهم حجارة صلبة شديدة على كل حجر اسم صاحبه الذى يهبط عليه ، وهكذا أهلكهم الله ودمر عليهم مساكنهم بعد أن أمر لوطا ومن آمن معه

---

(١) قصص الأنبياء ١/٢٦٦ .

بالخروج من المدينة ليلا [1] .

(فذوقوا عذابي ونذر) قال الله لهم ذلك تبكيتا واهانة .

(ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) تجديد للدعوة عقب كل قصة من تلك القصص إلى تدبر القرآن والانتفاع بآياته .

(فائــدة)

ذهب كثير من الأئمة الى أن اللائط — وهو الذى يفعل فعل قوم لوط — يرجم سواء كان محصنا أو لا . واحتجوا بما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به " .

وذهب الامام أبو حنيفة رضى الله عنه الى أن اللائط يلقى من شاهق (جبل) ويتبع بالحجارة كما فعل بقوم لوط .

التفسير من الآية (٤١) الى (٤٨)

" وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ (٤١) كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ (٤٢) أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ (٤٣) أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ (٤٤) سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ (٤٦) إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٤٧) يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي

---

(١) انظر : قصص الأنبياء ١/٢٦٨ .

النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (٤٨) " .

تذكر هذه الآيات بموقف آخر من مواقف التكذيب والهلاك .

أما هذه المرة فالموقف لفرعون وقومه الذين أهلكهم الله بالغرق جزاء ما كذبوا نبي الله موسى — على نبينا وعليه السلام — ورموه بالسحر وبالجنون ، وعتوا عتوا كبيرا .

وهذه هي آخر قصة من قصص المكذبين الذين أهلكهم الله ، وجعل إهلاكهم آية . وانظر كيف أهلك آخر المكذبين الذين حق عليهم الهلاك بنوع العذاب نفسه الذي أهلك به أول المكذبين ، فقد أهلك الله فرعون وقومه بالغرق ، وهو ما أهلك به قوم نوح من قبل .

وقصة سيدنا موسى مع فرعون وملائه ، مذكورة في مواضع متعددة من القرآن الكريم مجملة أو مفصلة .

وتلك الآيات من سورة القمر لم تفصل أحداث القصة ، واكتفت بالإشارة إلى موقف المعاندة والتكذيب الذي التزموه وأصروا عليه ، ثم إلى جزاء هذا الموقف .

وافتتحت الآيات الحديث عن فرعون وآله بالتوكيد القسمي لإبراز كمال الاعتناء بشأن هذه القصة لما فيها من الآيات الكثيرة والمواعظ البليغة .

ولقد علا فرعون في الأرض واستكبر ، وأسرف هو وقومه في معاندة الحق وتكذيب رسول السماء ، ولهذا أكدت الآيات تكذيبهم بالأدلة

كلها واستكبارهم على براهين الحق المتعددة فقالت : (كذبوا بآياتنا كلها) .

وكان عقابهم مناسبا لهذه العزة التى اصطنعوها، والسيرة الظالمة المتجبرة التى سلكوها (فأخذناهم) بالعذاب (أخذ عزيز مقتدر) . و (أخذ) مصدر منصوب على أنه مفعول مطلق ، وهو مضاف إلى فاعله . والعزيز المقتدر هو الله عز وجل ، فهو العزيز الذى لا يغلب ، والمقتدر الذى لا يعجزه شئ فى الأرض ولا فى السماء والفاء للتفريع .

وبعد هذه الإشارات المتوالية إلى قصص المكذبين بالحق المعاندين للرسل ، والذين أهلكهم الله من لدن قوم نوح إلى فرعون وقومه — وبين أولئك وهوءلاء أمم شتى كذبوا الرسل ، ولم يتعظوا بالنذر ، فأهلكهم الله ، بعد هذه الإشارات التى تحمل من الترهيب والإنذار والتخويف والزجر ما تحمل، تلتفت الآيات إلى كفار مكة قائلة : (أكفاركم خير من أولـئكم) وهذا استفهام إنكارى ينطوى على كثير من السخرية والاستهزاء بهم ، واسم الاشارة يعود على كل من سبق ذكره من المكذبين والمراد بالخيرية المستفهم عنها التفوق فى القوة والعدد والعدة ، والمعنى هل أنتم يا كفار مكة أقوى وأشد عزة ومنعة من المهلكين قبلكم ، فتمتنعون منا ؟! أو المراد بالخيرية لين الشكيمة فى الكفر (١) ، والمعنى

---

(١) روح المعانى للألوسى ٢٧/ ٩٣ .

أكفاركم يا أهل مكة أخف عنادا وأقل ضلالا من السابقين ، وهم بذلك لا يستحقون العقاب .

(أم لكم براءة فى الزبر) تبكيت آخر ومزيد من السخرية والاستهزاء بهم .

والزبر هى الكتب المنزلة قبل القرآن ، مفردها زبور بمعنى كتاب .

والمعنى : أم لكفاركم يا أهل مكة براءة وأمن من تبعات ما يعملون من الكفر والمعاصى وغوائلها ، نزلت هذه البراءة فى الكتب السماوية ، فلذلك يصرون على ما هم عليه ولا يخافون . والاستفهامان فى معنى النفى ويوحيان بالإنكار والسخرية .

وهذا القول شبيه بقوله لأهل الكتاب الكافرين عندما قالوا : لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً " قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ " .

(أم يقولون نحن جميع منتصر) تبكيت آخر ، وفى الآية التفات من ضمير الخطاب فى الآية السابقة إلى ضمير الغيبة للإيذان بافضاء حالهم إلى الاعراض عنهم وإسقاطهم عن رتبة الخطاب ، وحكاية قبائحهم لغيرهم .

ونحن جميع بمعنى : نحن جماعة أمرنا مجتمع لا نغلب ولا نلحق .

و (نحن) مبتدأ وجميع خبره بمعنى جماعة ومنتصر صفة ، وأفرد باعتبار لفظ (جميع) فانه مفرد لفظا جمع فى المعنى ، وهذا الإفراد

لرعاية الفاصلة .

ويمكن أن يكون (جميع) خبر لمبتدأ محذوف تقديره (أمرنا) وجميع بمعنى مجتمع ، والجملة خبر (نحن) و (منتصر) بمعنى ممتنع لا يغلب ، أو منتقم من الأعداء ، أو من النصر بمعنى العون وهى على وزن (مفتعل) والافتعال بمعنى التفاعل — أى ينصر بعضهم بعضا .

وفى هذه الآيات قال الله (أكفاركم) ولم يقل أأنتم للتنصيص على كفرهم والخطاب للعرب ثم عدل فيما بعد عن الخطاب فلم يقل أم أنتم بل قال : " أم يقولون نحن جميع منتصر) للإشارة إلى أن ذلك لا تحقق له أصلا إلا باللفظ ومحض الدعوة التى لا يوافق عليها [1] .

أما حقيقة الأمر فإن الهزيمة حالة بهم ولن ينفعهم جمعهم شيئا .

(سيهزم الجمع) رد لدعواهم أنهم منتصرون ، والسين للتأكيد (ويولون الدبر) أى الأدبار ، وأفردها على تأويلها بأن كل واحد منهم يولى دبره لرعاية الفاصلة ، وذلك فى اللغة جائز ، فقد ورد " كلوا فى بعض بطنكم تعفوا " ولم يقل بطونكم [2] .

أو الإفراد لإرادة الجنس الصادق على الكثير [3] وقد نزلت هذه الآية بمكة وعند نزولها قال عمر رضى الله عنه : أى جمع يهزم ، ولم يكن قد أذن للمسلمين بالقتال .

---

(١) انظر روح المعانى ٢٧/٩٢ .
(٢) الكشاف ٤/٣٥٠ .
(٣)

فلما جاء يوم بدر رأى الرسول صلى الله عليه وسلم يثب فى الدرع ويقول: " سيهزم الجمع ويولون الدبر " عرف عمر عندئذ تأويلها [1].

والآية — كما ترى — أخبرت بغيب تحقق ، وذلك باب من أبواب الاعجاز القرآنى ، ومن دلائل نبوته صلى الله عليه وسلم .

(بل الساعة) يعنى القيامة (موعدهم) موعد كفار مكة الذى يلاقون فيه العذاب الشديد جزاء كفرهم (والساعة أدهى وأمر) أشد هولا وأعظم عذابا من هول الهزيمة وتشتت الجمع فى الدنيا ، وأدهى اسم تفضيل ، والداهية هى الأمر المنكر المحير الذى لا يستطيع الواقع فيه التخلص منه ، وَأَمَرّ اسم تفضيل كذلك يعنى أشد مرارة فى الذوق ، وذكرت الآية الساعة للمرة الثانية بلفظها زيادة فى التخويف منها والإنذار بها .

(إن المجرمين) من الأولين الذين كذبوا نوحا وهودا ، وصالحا ولوطا وموسى ، والآخرين الذين كذبوا خاتم النبيين والرسل سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم ، هولاء وأولئك (فى ضلال) فى هلاك (وسعر) نار مستعرة متقدة . أو المعنى أنهم فى ضلال وبعد عن الحق فى الدنيا ، وفى نار حامية فى الآخرة . وقال ابن عباس رضى الله عنهما فى معنى الآية : فى خسران وجنون .

---

(١) روى ذلك عن عكرمة . انظر تفسير ابن كثير ٤/٢٦٦ .

(يوم يسحبون فى النار على وجوههم) بيان لشئ من صفة العذاب الذى ينتظرهم بعد القيامة ، يوم يجرون إلى النار وفيها على وجوههم . والظرف (يوم) متعلق بقول مقدر بعده ، أى يوم يسحبون يقال لهم : (ذوقوا مس سقر) يقال لهم ذلك على سبيل التقريع والاهانة . ومس سقر كقولك وجد مس الحمى وذاق طعم الضرب ، لأن النار إذا أصابتهم بحرها ولفحتهم بإيلامها ، فكأنها تمسهم مسا بذلك ، كما يمس الحيوان ويباشر بما يؤذى ويؤلم (١)
و (سقر) علم لجهنم من سقرته النار وصقرته إذا لوحته . قال ذو الرمة يصف بقر الوحش بأنه يأوى إلى شجر ملتف الأغصان كثير الورق يتقى به حر الشمس إذا اشتد :

إِذَا ذَابَتْ الشَّمْسُ اتَّقَى صَقَرَاتِهَا
بِأَفْنَانِ مَرْبُوعِ الصَّرِيمَةِ مُعْبِلِ

وسقر وصقر بمعنى . يقال : صقرته الشمس إذا ضربته فغيرت لونه . وصقرة الشمس اشتداد وقعها على الأرض (٢) .

وفى قوله تعالى : (ذوقوا مس سقر) استعارة مكنية ، لأن الذوق — فى الأصل — استشعار اللسان طعم ما يؤكل أو يشرب ، واستخدامه فى الألم على سبيل الاستعارة .

---

(١) انظر الكشاف ٤/٣٥٠ .
(٢) انظر مشاهد الانصاف على شواهد الكشاف للشيخ محمد عليان المرزوقى — بذيل الكشاف ٤/٣٥٠ .

الآيـــات من (٤٩) الى (٥٣)

"إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩) وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (٥٠) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (٥١) وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (٥٢) وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ (٥٣) " .

(إنا) ضمير العظمة دخلت عليه (إن) المؤكدة ، وأدغمت النون في النون (كل شيء خلقناه بقدر) كل — منصوب بفعل مضمر يفسره الظاهر . أى إنا خلقنا كل شيء خلقناه بقدر — أى مقدرا مكتوبا في اللوح قبل وقوعه ، فالقدر بمعنى علم الله القديم بكل شيء كان أو كائن أو سيكون .

قال الامام الألوسى : " وحمل الآية على ذلك هو المأثور عن كثير من السلف ، وروى الإمام أحمد ومسلم والترمذى وابن ماجه عن أبى هريرة قال : " جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في القدر فنزلت (يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر . إنا كل شيء خلقناه بقدر) وأخرج البخارى في تاريخه والترمذى وحسنه وابن ماجه وابن عدى وابن مردويه عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : " صنفان من أمتى ليس لهما في الإسلام نصيب المرجئة والقدرية " أنزلت فيهم آية في كتاب الله (إن المجرمين في ضلال وسعر) إلى آخر الآيات ، وكان ابن عباس يكره القدرية [1] .

---

(١) روح المعانى ٢٧/ ٩٣ .

وروى الإمام ابن كثير عن عطاء بن أبى رباح قال : أتيت ابن عباس وهو ينزع من زمزم وقد ابتلت أسافل ثيابه فقلت له قد تُكُلِّم فى القدر . فقال : أو قد فعلوها ؟ قلت نعم . قال : فوالله ما نزلت هذه الآية الا فيهم (ذوقوا مس سقر . انا كل شئ خلقناه بقدر) أولئك شرار هذه الأمة ، فلا تعودوا مرضاهم ولا تصلوا على موتاهم ، ان رأيتُ أحداً منهم فقأت عينيه بأصبعى هاتين .

وفى الحديث الصحيح : " استعن بالله ولا تعجز فان أصابك أمر فقل : قدر الله وما شاء فعل ولا تقل : لو أنى فعلت لكان كذا فان لو تفتح عمل الشيطان " .

وفى حديث ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : " احفظ الله يحفظك . احفظ الله تجده تجاهك . واذا سألت فاسأل الله . واذا استعنت فاستعن بالله واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشئ لم يكتبه الله لك لم ينفعوك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشئ لم يكتبه الله عليك لم يضروك ، جفت الأقلام وطويت الصحف " (١) .

ويجوز أن يكون معنى (انا كل شئ خلقناه بقدر) خلقنا كل شئ محكماً مستوفى فيه مقتضى الحكمة التى يدور عليها أمر الخلق والتكوين بلا نقص ولا زيادة ولا خلل .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير ٤/٢٦٨ .

ويربط الأستاذ سيد قطب بين هذه الآية وإيحاءاتها وما ورد في السورة من نذر وآيات بل يتسع مجال إيحاءات الآية ، ويستشف عطاءاتها الدالة على حكمة التقدير في خلق الله ، فيقول :

"إن ذلك الأخذ في الدنيا ، وهذا العذاب في الآخرة ، وما كان قبلهما من رسالات ونذر ، ومن قرآن وزبر ، وما حول ذلك كله من خلق ووجود وتصريف لهذا الوجود .

إن ذلك كله ، وكل صغيرة وكبيرة مخلوقة بقدر ، مصرفة بقصد مدبرة بحكمة لا شئ جزاف لا شئ عبث . لا شئ مصادفة . لا شئ ارتجال :

"إنا كل شئ خلقناه بقدر "

كل شئ .. كل صغير وكل كبير . كل ناطق وكل صامت . كل متحرك وكل ساكن . كل ماض وكل حاضر ، كل معلوم وكل مجهول كل شئ خلقناه بقدر .. قدر يحدد حقيقته . ويحدد صفته .

ويحدد مقداره . ويحدد زمانه . ويحدد مكانه . ويحدد ارتباطه بسائر ما حوله من أشياء . وتأثيره في كيان هذا الوجود .

وان هذا النص القرآني القصير اليسير ليشير إلى حقيقة ضخمة هائلة شاملة ، مصداقها هذا الوجود كله. حقيقة يدركها القلب جملة وهو يواجه هذا الوجود ، ويتجاوب ، ويتلقى عنه ، ويحس أنه خليقة متناسقة تناسقا دقيقا " (١)

---

(١) انظر في ظلال القرآن ٢٧/٣٤٣٦ .

ثم يشير الأستاذ قطب — رحمه الله — الى حقائق علمية ثبتت حديثا تدل على مدى التناسق العجيب والحكمة العالية فى هـذا الوجود الذى أبدعه الله فيقول :

(ولقد وصل العلم الحديث الى أطراف من هذه الحقيقـة ، فيما يملك أن يدركه منها ، بوسائله المهيأة له ، ووصل فى إدراك التناسق بين أبعاد النجوم والكواكب وأحجامها وكتلها وجاذبيتها بعضها لبعض إلى حد أن يحدد العلماء مواقع كواكب لم يروهـا بعد ، لأن التناسق يقتضى وجودها فى المواضع التى حددوهـا ، فوجودها فى هذه المواقع هو الذى يفسر ظواهر معينة فى حركـة الكواكب التى رصدوها . ثم يتحقق هذا الذى فرضوه ، ويدل تحقيقه على الدقة المتناهية فى توزيع هذه الأجرام فى هذا الفضاء الهائل ، بهذه النسب المقدرة ، التى لا يتناولها خلل أو اضطراب) (١)

والأمر كذلك فى الأرض والبحار والجبال (خلق كل شـىء فقدره تقديرا) .

وينقل الاستاذ سيد قطب عن كتاب (الله والعلم الحديث) (٢) بعض ما توصل اليه العلم الحديث من حقائق تثبت التوازن الدقيـق والتناسق العجيب فى خلق الله ، ومن ذلك مثلا :

" ان الجوارح التى تتغذى بصغار الطيور قليلة العـدد لأنها قليلة البيض ، قليلة التفريخ ، فضلا على أنها لا تعيش الا فى

(١) المرجع السابق ٢٧/٣٤٣٧ .
(٢) هذا الكتاب من تأليف عبد الرزاق نوفل .

مواطن خاصة محدودة . وهى فى مقابل هذا طويلة الأعمار ، ولو كانت مع عمرها الطويل كثيرة الفراخ مستطيعة الحياة فى كل موطن ، لقضت على صغار الطيور وأفنتها على كثرتها وكثرة تفريخها أو قللت من أعدادها الكبيرة اللازمة بدورها لطعام هذه الجوارح وسواها من بنى الانسان ، وللقيام بأدوارها الأخرى ، ووظائفها الكثيرة فى هذه الأرض .

بغاث الطير أكثرها فراخا

وأم الصقر مقلات نزور

وذلك للحكمة التى قدرها الله كما رأينا كى تتعادل عوامل البقاء وعوامل الفناء بين الجوارح والبغاث . والذبابة تبيض ملايين البويضات . ولكنها لا تعيش إلا أسبوعين ولو كانت تعيش بضعة أعوام ، تبيض فيها بهذه النسبة لغطى الذباب وجه الأرض بنتاجه ولغدت حياة كثير من الأجناس - وأولها الانسان - مستحيلة على وجه هذه الأرض . ولكن عجلة التوازن التى لا تختل فى يد القدرة التى تدبر هذا الكون ، وازنت بين كثرة النسل وقصر العمر فكان هذا الذى نراه " (١)

وهكذا أمر الحكمة الإلهية فى كل أمر وفى كل حدث وفى كل تصريف وفى كل خلق - فسبحان الله العظيم .

ولا تعارض بين تفسير الآية (إنا كل شئ خلقناه بقدر) على الوجه الأول (وأن القدر هو علم الله المحيط بكل شئ) وتفسيرها

---

(١) فى ظلال القرآن ٢٧/٣٤٣٧ .

على الرأى الثانى (وأن القدر معناه الحكمة والدقة والقصد والتناسق والتناسب وفق ما أراد الله واقتضت حكمته) .

(فائـــدة)

تقدم أن (كل شئ) فى قوله تعالى : "إنا كل شئ خلقناه بقدر" منصوب بفعل محذوف يفسره الفعل المذكور ، والتقدير إنا خلقنا كل شئ خلقناه بقدر .

والقياس النحوى هنا هو رفع (كل) لانصبها لأن الكلام مع الرفع جملة واحدة ، ومع النصب جملتان ، فالرفع أخصر . وقد عدل القراء السبعة عن القراءة بالرفع إلى القراءة بالنصب لسر لطيف هو أنه لو قرئ برفع (كل) لجاز أن يكون اعراب الآية هكذا : كل مبتدأ ، وشئ مضاف اليه ، وجملة خلقناه صفة لشئ ، وبقدر خبر المبتدأ ، ويكون المعنى : انا كل شئ مخلوق لنا بقدر ، ويمكن أن يفهم ذلك أن مخلوقا ما يضاف إلى غير الله تعالى ليس بقدر ، فهذا الاحتمال الذى يمكن أن يفهم من رفع كل (وهو أن غير الله يمكن أن يخلق) هو الذى جعل القراء السبعة ينصرفون إلى النصب ويتركون الرفع ، لأنه بالقراءة على النصب يصير المعنى : إنا خلقنا كل شئ بقدر . فيفيد عموم نسبة كل مخلوق الى الله تعالى [1] .

(وما أمرنا إلا واحدة) أى ما شأننا إلا فعلة واحدة على

---

(١) راجع (الانتصاف) للامام أحمد بن المنير الاسكندرى وهو بذيل الكشاف ٣٥١/٤ .

نهج لا يختلف ووتيرة لا تتعدد وهى الايجاد بلا معالجة ومشقة ، أو ما أمرنا الا كلمة واحدة ، وهى (كن) فاذا أراد عز وجل شيئا قال له : (كن فيكون) (كلمح بالبصر) أى فى السير والسرعة . وقيل : هذا فى قيام الساعة (١) .

(ولقد أهلكنا أشياعكم) الخطاب موجه إلى كفار مكة ، والأشياع جمع شيعة وهم من يتقوى بهم المرء من الأتباع . والمعنى : أهلكنا أشباهكم فى الكفر والضلال من الأمم السابقة (فهل من مدكر) فهل من متعظ بهذا الذى حدث لهم ، وهو إشارة الى ما قص الله من أنباء السابقين التى كان ينبغى للعرب أن يتعظوا بها . (وكل شئ فعلوه) من الكفر والمعاصى (فى الزبر) يعنى مكتوب . والزبر هى كتب الملائكة الموكلين بكتابة أعمال العباد . وجملة (فعلوه) صفة لشئ ، والجار والمجرور متعلق بكون خاص تقديره مكتوب ، وهو خبر للمبتدأ (كل) (وكل صغير وكبير) من أعمالهم ومن كل ما هو كائن (مستطر) مسطور ومكتوب فى اللوح المحفوظ بتفاصيله من زمان ومكان وهيئة وأثر وغير ذلك . أو مسطر فى صحائفهم التى يأخذونها يوم القيامة ، فيجد كل عبد كتابه لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها ... عن عائشة — رضى الله عنها — أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : " يا عائشة إياك ومحقرات الذنوب فإن

---

(١) روح المعانى ٢٧/٩٤ .

لها من الله طالبا " (١) .

الآيتـان (٥٤) و (٥٥)

"إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ (٥٥) " .

لما بين الله سبحانه وتعالى سوء المنقلب والعاقبة للكافرين ، وما أصابهم من ذلك في الدنيا وما ينتظرهم منه في الآخرة ، ناسب ذلك أن يشير إلى حسن المنقلب وسلامة العاقبة للمؤمنين المتقين ، ليتعاون الترهيب والترغيب في هز الأفئدة وتحريك المشاعر نحو الاستجابة إلى الحق والاهتداء بنور الله والمسارعة إلى مرضاته واللجوء الى حماه ، خوفا من عقابه وطمعا في ثوابه .

(إن المتقين) المتصفين بالخوف من الله واتقاء غضبه ببعدهم عن معصيته (في جنات) مصيرهم الإقامة الكريمة المنعمة فيها ، وجنات : جمع جنة . والجنة — في اللغة — الحديقة ذات الشجر والنخل — من الاجتنان . وهو الستر ، وسميت بذلك لتكاثف أشجارها والتفاف أغصانها ، فهي بذلك تستر الأرض بظلها . والمقصود بها هنا دار الجزاء المعدة للمؤمنين بالله الحافظين لحدوده ، يتنعمون بها في الآخرة . والتنكير يفيد التعظيم .

(ونهر) أي — أنهار ، والإفراد اكتفاء باسم الجنس مراعاة

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٤/٢٦٩ .

للفواصل .

وروى عن ابن عباس تفسيره بالسعة وأنشد عليه قول الشاعر :

مَلَكْتُ بِهَا كَفِّى (فَأَنْهَرْتُ) فَتْقَهَا

يَرَى قَائِمٌ مِنْ دُونِهَا مَا وَرَاءَهَا (١)

والشاهد (أنهرت) بمعنى أوسعت فتقها ، والشاعر يصف طعنته فى جسد خصمه بأنها نافذة واسعة .

والمراد بالسعة — فى الآية على هذا التفسير سعة المنازل ، وقيل : سعة الرزق والمعيشة ، وقيل ما يعمهما .

وقيل : (ونهر) يعنى فى نور وضياء ، وعليه ففى الكلام استعارة حيث شبه الضياء المنتشر بالماء المتدفق من منبعه ، وجوز أن يكون بمعنى النهار على الحقيقة ، والمراد أنهم لا ظلمة ولا ليل عندهم فى الجنات . (٢) والجار والمجرور فى محل رفع خبر (إن)

(فى مقعد صدق) أن فى دار كرامة الله ورضوانه وفضله وامتنانه وجوده وإحسانه — قال بذلك الإمام ابن كثير " (٣) وقيل : المراد صدق المبشر به وهو الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم أو المراد أنه ناله من ناله بصدقه وتصديقه للرسل عليهم السلام ، فالاضافة لأدنى ملابسة .

وقال جعفر الصادق رضى الله عنه : مدح المكان بالصدق فلا

---

(١) روح المعانى ٢٧/٩٥ .
(٢) روح المعانى ٢٧/٩٥ .
(٣) تفسير ابن كثير ٤/٢٦٩ .

يقعد فيه الا أهل الصدق ، وهو المقعد الذى يصدق الله تعالى فيه مواعيد أوليائه بأنه يبيح عز وجل لهم النظر إلى وجهه الكريم .(١)
وذهب الإمام الألوسى إلى أن (فى مقعد صدق) بمعنى فى مكان مرضى على أن فى الكلام مجازاً مرسلاً حيث عبر بالصدق عن لازمه ، أو فى الكلام استعارة ، وأفرد (مقعد) على إرادة الجنس .(٢)

(عند مليك مقتدر) أى عند الملك العظيم الخالق القائم بالتدبير والتقدير على خلقه وملكه ، المقتدر الذى لا يعجز قدرته شئ فى الأرض ولا فى السماء .

ويمكن أن يكون الظرف (عند) فى موضع الحال من الضمير المستقر فى الجار والمجرور (فى مقعد ..) أى مستقرين فى مقعد صدق حالة كونهم عند مليك .

ويمكن أن يكون الظرف فى محل رفع خبر (إن) بعد الخبر السابق أو فى محل جر صفة ، لمقعد صدق أو بدلا منه . ونكر لفظى مليك ومقتدر إشارة الى أن ملكه تعالى وقدرته عز وجل ، لا تدرى الأفهام كنههما ، وأن قربه منهم سبحانه بمنزلة من السعادة والكرامة بحيث لا عين رأت ولا أذن سمعت مما يجل عن البيان وتكل دونه الأذهان (٣) .

أخرج الحكيم الترمذى عن بريدة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى : " إن المتقين " الخ قال : إن أهل الجنة يدخلون على

---

(١) روح المعانى ٢٧/٩٦ .
(٢) روح المعانى ٢٧/٩٦ .
(٣) روح المعانى ٢٧/٩٧ .

الجبار كل يوم مرتين فيقرأ عليهم القرآن وقد جلس كل امرئ منهم مجلسه الذى هو مجلسه على منابر الدر والياقوت والزمرد والذهب والفضة بالأعمال فلا تقر أعينهم قط كما تقر بذلك ولم يسمعوا شيئا أعظم منه ولا أحسن منه ثم ينصرفون إلى رحالهم قريرة أعينهم ناعمين إلى مثلها من الغد "(١)

وروى الامام مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

" المقسطون عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين ، الذين يعدلون فى حكمهم وأهليهم وما ولوا "(٢)

والمليك والمقتدر من أسماء الله الحسنى ، وقد وردت آثار تفيد أن لهما شأنا فى استجابة الدعاء ، فعن سعيد بن المسيب قال : دخلت المسجد وأنا أرى أنى أصبحت فاذا على ليل طويل وليس فيه أحد غيرى فنمت فسمعت حركة خلفى ففزعت فقال : أيها الممتلئ قلبه فرقا لا تفرق أو لا تفزع وقل : اللهم إنك مليك مقتدر ما تشاء من أمر يكون ، ثم سل ما بدا لك . قال : فما سألت الله تعالى شيئاً إلا استجاب لى "(٣)

تم القول فى تفسير سورة القمر

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات

---

(١) روح المعانى ٢٧/٩٦ .
(٢) ابن كثير ٤/٢٦٩ .
(٣) روح المعانى ٢٧/٩٦ .

أهم المصادر والمراجع

١ — القرآن الكريم
٢ — الاتقان فى علوم القرآن — للامام السيوطى .
٣ — الاسرائيليات والموضوعات فى كتب التفسير — د — محمد أبوشهبة
٤ — روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى — للامام الألوسى .
٥ — الكشاف — للامام الزمخشرى .
٦ — تفسير القرآن العظيم — للامام ابن كثير .
٧ — مفاتيح الغيب — للامام الرازى .
٨ — جامع البيان فى تفسير القرآن — للامام ابن جرير الطبرى .
٩ — أنوار التنزيل وأسرار التأويل — للامام البيضاوى .
١٠— ارشاد العقل السليم الى مزايا القرآن الكريم — للامام أبى السعود .
١١— لطائف الاشارات — للامام القشيرى .
١٢— فى ظلال القرآن — للاستاذ الشيخ سيد قطب .
١٣— قصص الأنبياء — للامام ابن كثير .
١٤— صفوة التفاسير — للشيخ الصابونى .
١٥— التاج الجامع للأصول فى أحاديث الرسول — للشيخ على ناصف .

***

محتـــوى الكتـــاب

***